
إنما أنا عبد



بسم الله الرحمن الرحيم

محفوظة جميع الحقوق

إنما أنا عبد

عمر علي كامل.

الطَّبْعَةُ الأُولَىٰ: ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م.

رقم الإيداع لدى دار الكتب المصرية: ٢٧٣٤٧/ ٢٠١٩ م.

الرقم المعياري الدولي: ISBN:٩٧٨-٩٧٧-٨٥٤٧٨-٣-٢



المكتبة الخيرية للطباعة والنشر والتوزيع

٢ ش الدردير من ش البيطار - خلف الجامع الأزهر - القاهرة - مصر.
هاتف الإدارة: ٠٠٢٠١٠٢٠٣٣٢٠١٠.

البريد الإلكتروني: alkhairya.lib@gmail.com

https://www.facebook.com/alkhairya.lib/

خط الغلاف: الأستاذ الكبير مصطفى عِمَرى - خطاط المصحف الشريف.

تصميم الغلاف: أ. أسامة - شركة Paradise Media.

9 789778 547832


إنما أنا عبد


إنما أنا عبد


عمر بن علي


المكتبة الخيرية
للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

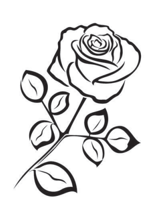
إلى الرجل الذي لم أجالسه في قرابة ثلاثين سنة إلا

عُشْرَها؛ لكنه بذر وسقى ثم رحل!

هذا حصادك -يا رضي الله عنك-!

إلى أبي

-رحمه الله-



شكر وتقدير

لا أعلم من عبارات الشكر والثناء ما يوفيها بعض حقها، غير أني أعلم أن الرحمن -تبارك وتعالى- كفيل بذلك.

فاللَّهُمَّ اجْزِ **أُمِّي** عني وعن إخوتي خير الجزاء، وارزقنا برها، وأطل عمرها في طاعتك، آمين.

ولا زالت نفسي تعاف توجيه الشكر لنفسي على ما أَوْلَتْ هذا الكتاب من الاهتمام والمراجعة وإعمال يد التصحيح والنقد والإضافة والحذف في الكتاب بما يصلحه، ثم على كل شيء في حياتي كنا فيه سويًّا نشد أزر بعضنا، وكان لي ردءًا وناصرًا ومعينًا.

إلى أخي الأكبر **هشام** الذي هو مني كنفسي، أدام الله نعمته عليّ بك، وصب عليك الخير صبًّا.

إلى الصالحات القانتات المؤمنات -أحسبهن والله حسيبهن- حاملات كتاب الله والعاملات به، إلى **أُخَيَّاتِي الثلاثة**، ستركنَّ الله بستره الجميل، وبارك في أعماركنَّ على

طاعته، وجزاكنَّ الله عن أخيكنَّ خيرًا.

إلى من أتمَّ الله بها نعمته عليَّ، فكانت نعمت المعينة، والمحفزة والمشجعة على ما بقيت سنين عددًا أؤجله وأتلكأ عنه، ثم رزقنيها الله -تعالى- من غير حول مني ولا قوة فأتت بالخير كله.

إلى شقيقة الروح زوجي **أمِّ يَحْيَى وأُبَيّ** جزاك الله عني خيرًا.

إلى صاحِبَيَّ أعظم فضل عليَّ في حياتي -بعد فضل الله تعالى-: فتح الله -تبارك وتعالى- لي على يديه فلقنني كتاب الله -برواية حفص-، فحفظته على يديه مجودًا في ستة أشهر، فلم يَضِنَّ علي بوقت ولا بجهد، سيدي الشيخ المقرئ **مصطفى علي البَنَّا** -بارك الله في عمره-.

ثم تلقفني من بعده أبي بعد أبي، فطالت ملازمتي له، قرابة عشر سنوات، ولا زالت والحمد لله، وكان من جميل منة الله -تعالى- علي، أن شرفني في بيته بإجازة القراءات العشر المتواترة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم أتمَّ جميله، بأن كان عقد زواجي على شقيقة الروح في بيته كذلك؛

لتتم علي المِنَّتَان بين يديه، إلى شيخي وسيدي وأستاذي وأبي بعد أبي، الشيخ العقيد المهندس المجاهد **سيف الدين محمد عبد الجواد** -بارك الله في عمره، ومتعني بصحبته-.

جزاكما الله عني خير الجزاء، وأجزل لكما المثوبة، وجمعني بكما في دار كرامته بصحبة النبي -صلى الله عليه وسلم-، آمين.

إلى أصحابي وإخواني الأحبة **علي فريد وأحمد عبد العظيم وعثمان محمود**، لكم علي أيادٍ يكافئكم بها الله وحده، وفي القلب لكم محبة يعلمها الله وحده، فجزاكم الله عني خيرًا.

إلى من فتح الله -تعالى- لي به أبواب خير كنت أظنها قد غُلِّقت أو كادت، فأتممت الكتاب موجهًا حديثي إليه، واستَنْبَتَ في قلبي حياةً جديدةً، إلى صغيري: **أُبَيّ**، جزاك الله عن أبيك خيرًا وجعلك مباركًا أينما كنت، آمين.



المقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالِمِينَ...

الحَمدُ لله المَلِكِ القُدُّوسِ السَّلامِ المُؤْمِنِ المُهَيْمِنِ العَزِيزِ الجَبَّارِ المُتكَبِّرِ...

الحمدُ للهِ الخالقِ البارئِ المُصَوِّرِ...

الحمدُ للهِ له الأسماءُ الحُسْنَى...

الحمدُ للهِ الذي يُسَبِّحُ له ما في السماواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيمُ...

وَصَلَّى اللهُ على الهَادي الأَمِينِ، المَبْعوثِ رحمةً للعالَمِينَ.

مَنِ اصْطَفَاهُ ربُّهُ بِخِتَامِ الرِّسالات، وبَوَّأَهُ أعلى المَقاماتِ، وجعله الدليلَ الأوحدَ لِجَنَّةٍ عَرْضُها الأرضُ والسماواتُ.

لا يَسْمعُ به أحدٌ من الأُمَمِ إلا وَجَبَ عليه الإيمانُ به، صَلَواتُ ربي وتَسْلِيمَاتُه عليه، وبعدُ:

فَإِنَّ الملكَ -جلَّ جلاله- قد امتنَّ على عبده أنْ جعله مسلمًا موحدًا لأبَوَيْنِ مسلمَيْنِ مُوَحِّدَيْنِ، ثمَّ امتنَّ عليه بوالدٍ أكْرَمَه اللهُ أنْ علَّمَه معنى العُبودِيِّةِ له -سبحانه-، فكان يُحْسِنُ العبودية لرَبِّه -تبارك وتعالى- في كلِّ أمورِه، ولما اقْتَرَبَتْ لحظةُ لقائه بخالقه -جل جلاله-؛ فكأنَّما أُلْهِم أنَّ لقاءَ الرَّحْمٰنِ باتَ قريبًا، وأنَّ فراقَ الدنيا وأهلها صار كذلك، فبادَرَني -رحمه الله ورضي عنه- بمجلسٍ جعل يُحَدِّثُ فيه عن ربه -تبارك وتعالى-، كأنَّما يُوصِيني وَصِيَّةَ مودِّعٍ، مُودِعًا كُلَّ أو جُلَّ ما حواه صدره من معاني العبودية لله -سبحانه وتعالى-؛ فقد كان يراها أُولَى المقامات وأوسطَها وآخرَها.

فحملتُ عنه يومها -وكان يوم الجُمعة قبل وفاته التي كانت يوم الثلاثاء السابع من صفر لعام ألف وأربعمائة وخمسة وثلاثين من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم- ما استطعت أن أَحْمِل، ثُمَّ امتنَّ الله عليَّ بعدها بعملِ قلبٍ فيما حكاه الوالد -رحمه الله- وأوصى به، ففُتِح لي ما أَحْسِبُه خيرًا، وكان مِنْ أَقَلِّ حقوقِ الوالد -رحمه الله ورضي عنه- أن أبُثَّ في

الناس خيرًا تركه، عسى أن يكون من الباقيات الصالحات له، من باب علمٍ يُنتَفَعُ به، وولدٍ -أصلحه الله- يدعو له، ثم إني تلكأت مرارًا في كتابة هذه الرسالة؛ لعلمي بعجزي وتقصيري، وخشية أن أزيد في معنى حكاه الوالدُ -رضي الله عنه ورحمه- ما يُخِلُّ به أو يَحْرِفُه عن مرادِه فيُنسَب له ما هو منه براء؛ غير أنَّ الله -تبارك وتعالى- بعد أَنِ امتنَّ عليَّ في أول سنة ١٤٤٠هـ بتمام نصف ديني بالزوجة الصالحة، امتنَّ في ختامها بحَجَّةِ الإسلام من حيث لا أدري ولا أحتسب، فكان لِزَامًا عليَّ أن أكتب عن الملك -تبارك وتعالى-، وأنا جالس بحَضْرَتِه، وفي ضيافته، ووجهي تِجاه بيته المُعَظَّمِ، أرجو رحمته -سبحانه- وأخشى عذابَه، وأسأله -سبحانه- ألا يَخُطَّ قلمي حرفًا لا يُرْضِيهِ، كما أَسْأَلُه أن يُجْرِيَ على يدي ولساني ما يُحِبُّ أن يقرأَه ويسمعَه عبادُه عنه، سبحانه سبحانه، لا تقال إلا له، هو ربنا وإليه نرجع، والحمد لله رب العالمين.

وبعد:

فما كان من خيرٍ أو معنًى صالحٍ في هذه الرسالة فتوفيقُ

المَوْلَى -تبارك وتعالى- أوَّلًا وآخرًا، ثُمَّ هو مما علَّمني أبي -رحمه الله ورضي عنه- أصولَه، وَلْيَسْتغفِرْ له مَنِ استفادَ حرفًا من هذا الكتاب.

وما كان من خطأ أو زلل فمني ومن الشيطان، والله ورسوله ثم أبي بريئون مِنْ أنْ يُنْسَبَ لهم شيءٌ منه.

ثُمَّ إنَّ العلماءَ قالوا: مَنْ أسْندَ فقد أحالَ، ومَنْ أَرْسَلَ فقد تَكَفَّلَ!

فما تجده من حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مُرْسَلًا غير محالٍ على كتاب من كتب السنة ولا مسندٍ فخذه فإنه من صحيح أو حسن حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وما اختلف العلماء في إسناده عَلَّقتُ بذلك تعليقًا مقتضبًا حتى لا يخرج الكتاب عن المراد منه وسأجتهد في بيان ما استطعت من ذلك في آخر الكتاب في باب (وصايا جامعة).

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه العبد

عمر بن علي

أبو أُبَيّ

٢٨ ذو القعدة ١٤٤٠هـ

الثلاثاء

بمواجهة الكعبة المشرفة بأم القرى

مكة المكرمة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نَبِيِّه الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فصَلَّى اللهُ وسلَّمَ على القائل: «**إنما أنا عبد**»؛ فلئن قالها خيرُ خلقِ اللهِ أجمعين، فحُقَّ للحقير الفقير، مَنْ حالُه كَحَالي، وخُلُقُه كخُلُقِي أن يتمثلها في كل أموره؛ ذليلًا خاضعًا لمولاه، منكسرًا متواضعًا متألِّمًا من عِظَم ما اقترفته يداه، سائلًا المولى -تبارك وتعالى- أن يقبله على عَلَّاتِه، وأن يتجاوز بِمَنِّهِ وكرمِه عن سيئاته.

«**إنما أنا عبد**» منهاجُ حياةٍ، وأصلٌ قامت عليه السماوات والأرضين بكل ما فيها من مخلوقات؛ حيث إنَّ مردَّها لقول الملك -تبارك وتعالى-:

﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦]

خلق الله -سبحانه وتعالى- الخلقَ جميعا ليعبدوه!

هذا أولُ الأمرِ، وأول التكليف، وأول كلِّ شيءٍ، فكلُّ

مخلوقات الله -سبحانه وتعالى- عبيدُه، وكلهم تحت ملكوته وسَطْوته منكسرون خاضعون ذليلون له، شاء من شاء، وأبى من أبى!

وإنما تتفاوت المخلوقات جميعًا بين قطبي التسليم والجحود!

فأعظمهم مقامًا سيد الخلق -صلى الله عليه وسلم- الذي أخبر عنه ربُّه بقوله -سبحانه-: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ١٣ - ١٤].

وأخسهم وأحقرهم مقامًا إبليس -عليه لعائن الله تَتْرا- الذي تسَفَّلَ إلى أخسِّ دركاتِ الجحودِ، بعد أن بلغ مقامًا من مقامات الشهود.

والناسُ بين المَرتبتَيْنِ متفاوتون، فأقربُهم بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إخوانُه من الرسل والأنبياء -على تفاوت فيما بينهم صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين-، ثم أصحابه -صلى الله عليه وسلم-، ثم مَنْ كان على منهجهم، وأصاب من التسليم بعض ما أصابوا، ونال من تحقيق العبودية لله -تعالى- بعضَ ما نالوا.

وأما العبودية فإن بلوغها يحتاج من العبد إلى عملٍ وجهد، عمل قلب وعمل جوارح، ومنطلق تحقيقها من قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه -تبارك وتعالى-: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطِش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**».

فانظر أيها العبد وتأمل معي هذا المثال؛ لعله يوصلك لحقيقة المقال:

هَبْ أن مَلِكًا صاحبَ أرضٍ واسعةٍ له من العبيد والخدم ما لَهُ، وهم في خدمته كيفما يشاء!

فكتب لعبيده كتابًا أخبرهم فيه بما كلَّفهم به؛ حتى لا يحتجَّ محتجٌّ أَنْ قد نسي ما عليه، وجعل لكل واحد منهم أعمالًا، وأجرى لكل منهم رزقا بما يراه يصلحه، وكلَّف كل واحد

منهم بما يستطيعه، وبما يراه قادرًا على تنفيذه، فكلف واحدًا بالزراعة، وآخر بالحرث، وثالثًا بالبيع والتجارة، وآخر بمتابعة أعمال الجميع، وعلى هذا فَقِسْ.

أرأيت لو أن أحدهم انشغل بحفظ الكتاب دون أن يعمل ما كُلِّف به! أرأيت لو أنَّه قال لسيده حفظت الكتاب وتركت ما كلفتني به؛ طمعًا في رضاك، أكان بذلك يرضيه؟!

أرأيت لو أن آخر ترك تكليفه وانشغل بعمل غيره، أكان يرضيه؟!

أرأيت لو أن ثالثًا ترك العمل كله وانشغل بالنظر فيما في أيدي بقية العبيد، أكان يرضيه؟!

ولله المثل الأعلى؛ إنما مثلنا كمثل هٰؤلاء العبيد أرسل الله لهم رسلَه، وأنزل لهم الكتب، ثم ختمها بأشرف الرسل وأعظم الكتب، فانشغل أحسننا حالًا بحفظ الكتاب دون العمل بما فيه -إلا من رحم الله-، وانشغل أراذلنا بالنظر لما في أيدي بقية العبيد يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله؛

وغفلوا عن جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، وانشغل غيرهما بما انشغلوا به!

وقليلٌ منَّا من يدرك أنَّ هذه الدنيا مقامُ العبيد، غنيِّهم وفقيرِهم، قَوِيِّهم وضعيفِهم.

كل هٰؤلاء عبيد لله، ابتلاهم ربهم لينظر كيف يعملون.

فظنَّ من آتاه الله بسطةً في علم أو جسم أو مال أنَّما أوتيه على علم عنده، ولم يعلم -أو لا يريد أن يعلم- أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعًا، ولكن لا يُسألُ عن ذنوبهم المجرمون؛ فإنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فعميت أعينهم عن رؤية حقيقتها، فتكبَّرَتْ وهي الذليلة، وتعاظَمَتْ وهي الحقيرة، وظنَّت في نفسها الكبرياءَ والبطرَ فخسفَ الله بها، فاللّٰهُمَّ إنا نعوذ بك من سوء المآل!

وإنِّي إذْ أشرتُ لك -أخي العبد- عنْ مَثَلِنَا مع الله -تبارك وتعالى-؛ فإني مُلِحٌّ عليكَ في قَبُولِ ما يأتي وأخذه بقوة؛ فإنَّ

الملك -تبارك وتعالى- فتح لك **ثلاثةً من أبواب العبودية** يندرج تحتها كُلُّ عملٍ!

أما أوَّلها: فهو ما كان بينك وبين ربك.

وأما ثانيها -وكثيرا ما نغفل عنه-: وهو نفسك التي بين جنبيك وطريق تقويمها وتزكيتها وتأديبها وإصلاحها.

وأما ثالثها: فما كان من معاملة بينك وبين خلق الله، سواء كان على مستوى الأفراد أو كان على مستوى المجتمع أو الأمة.

وإنك إن نظرت إلى كُلِّ عَمَلٍ تعمله في حياتك فَبِنِيَّتِكَ وقصدك تجعله عبادة، وهو مندرجٌ تحت قسم من هذه الأقسام، والمسلمُ المُنْتَبِهُ لأعماله، الراجي الترقي في مقامات المعرفة بالله؛ لا يَخْطُوَنَّ خطوةً إلا بِنِيَّةٍ؛ راجيًا بها تحقيق العبودية للملك -تبارك وتعالى-.

فإن علمتَ هذا؛ فاعلم أنَّ العبادةَ كما عرَّفها **شيخ الإسلام ابن تيمية** -رحمه الله- هي:

اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال،

الظاهرة والباطنة.

وقبل أن أدخل معك -أخي العبد- في تطبيق عملي لهذه المسالك؛ فإني أود أن أنبهك على أمر ينبغي أن تضعَه نصبَ عينيْك في طريق سَيْرِكَ إلى الملك -تبارك وتعالى- وهو أن العبد بحق هو الذي يسمع بالشيء يعلم فيه رضا سيده فيبادر إليه، أما العبدُ المتردِّدُ أو الآبِقُ فإنه يبادر إلى إنكارِه أو البحثِ عن مخرجٍ للتفلُّتِ من أدائه، كما يفعل كثير من الغافلين منَّا إذا علم أن الأمرَ سُنَّةٌ أو مستحبٌ، فكأنما وجد ضالَّته في الخلاص منها، وليس هذا حال العبد!

إن استقرَّ في وجدانك هذا المعنى، فدعني أنبِّهُك على أمر غاية في الأهمية:

إذا قرأت كتابَ الله -تعالى- وسنةَ نبيه -صلى الله عليه وسلم- فاقرأهما قراءة عبدٍ يبحث عن مراضي سيده ليَمْتَثِلَ!

أما كتاب الله -تبارك وتعالى- فإني أذكره لك في كل موضع -إن شاء الله-، وأذكر لك قريبًا كيفية تعامل العبد مع كتاب

ربه إجمالًا وتفصيلًا، وأمَّا السُنَّةُ فتأتي بعد كتاب الله -تبارك وتعالى- في بيان تعامل العبد معها، أما ما أقدمه في الذكر الآن؛ لمناسبة المقام، حيث إن ربي شرفني بزيارة نبيه -صلى الله عليه وسلم-، والوقوف بمواجهة مرقده الشريف المطهر، والسلام عليه -صلى الله عليه وسلم-، ثم على صاحبَيْه المكرَّمَيْنَ الطاهرَيْنِ البارَّيْنِ، فآثرت أن أقدم لك نبذة عن كيفية التعامل مع النبي الأكرم -صلى الله عليه وسلم-، والحمد لله على ما به أنعَم، وتفضَّل على عبده وتكرَّم!

اعلم -أخي العبد- أن مقام نبينا -صلى الله عليه وسلم- لا يُدْرَك بالنظر الآدمي إلا على قدر إيمان كل عبد بربه وتصديقه بنبيه ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، ومهما بلغَ العبدُ مِنَّا معرفةً بمقام نبينا المكرم؛ فإنما هي معرفة تقصر عن وصف حقيقته؛ ولا أقول لك هذا غلوًّا ولا مبالغة وأنا في كنفِ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولكن أوضحها لك بعبارة وجيزة.

شرَفُ نبيِّنَا الأكرم ومقامه ومكانته إنما استمدها من الاصطفاء الإلهي له، والاصطفاء سرُّ الله تعالى، لا يعلم سببه ولا حقيقته مخلوق مهما بلغ من العلم، فالله يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، وهو سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب؛ فإن علمت هذا فاعلم أن شرف المنتسِبِ ومقامَه مِنْ شرفِ المنتسَبِ إليه.

ونبينا ورسولنا -صلى الله عليه وسلم- إنما نال ما نال بشرف النسبة والقرب من الخالق -تبارك وتعالى-، فهو رسول (الله) ونبي (الله) وعبد (الله) وخليل (الله)، وشرَّفه ربه في القرآن بنسبته لنفسه فقال -جل شأنه-: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وقال -تبارك وتعالى-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨]، وغير ذلك من الآيات؛ لذا كان أعظمَ مكانةٍ لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- انتسابُه للخالق -تبارك وتعالى-!

فإن وعيت ذلك، فاعلم أن محبة العبد لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- نابعةٌ من محبتِه للخالقِ، فإنَّ الملكَ

-تبارك وتعالى- هو المحبوب لِذَاتِه، وكل محبة فيه -سبحانه وتعالى- إنما هي بقدر الانتساب له، فأقرب الخلقِ إليه -جل وعلا- هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ لذا قال لصاحبه عمرَ -رضي الله عنه-: «**حتى أكون أحب إليك من نفسك**»؛ لأنه -صلى الله عليه وسلم- أحقُّ الخلقِ بالمحبةِ لِعِظَمِ مكانته من رب العالمين، لا يسبقه فيها نبيٌّ مرسلٌ ولا ملكٌ مقربٌ!

ومحبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نابعة من اصطفاء الله له، بأن جعله دليلنا إليه -تبارك وتعالى-؛ فلولاه -بعد فضل الله تعالى- ما عرفنا ربَّنا، ولا تنعَّمْنَا بالإيمان، ولا ذُقْنَا بردَ اليقينِ، ولا لفَّتْنَا سَكِينةُ التوكلِ، ولا غَمَرَتْنا بركاتُ الذُّلِّ للعزيزِ، ولا فيوضاتُ الافتقارِ للغنيِّ، ولا أنِسْنا بإطالة القيام بين يدي الملك -جل وعز-، وركَّعًا وسجودًا، ولا خضنا بحر معرفته -تبارك وتعالى-.

فكلُّ خيرٍ بَلَغَه عبدٌ مؤمنٌ مُذْ بعث الله نبيَّه -صلى الله عليه وسلم- إلى يوم يبعثون إنما هو نفحة من نفحات النبي الأكرم والدليل الأعظم -صلى الله عليه وسلم-.

وكلُّ علمٍ ومعرفةٍ بالله -تبارك وتعالى- لأحد العباد إنما هو من عَرْفِ علمِه وفَضْلةِ خيره -صلى الله عليه وسلم-.

فإنْ علمت هذا وامتلأ به قلبك فإياك أن تنسى أنَّ كل هذا الفضل الجميل والمقام الكريم لنبينا الأمين إنما هو مَحْض منة الرب -جل وعلا- على نبيه أوَّلًا، ثم علينا وعلى الناس، فلا يختلط عليك مقام المخلوق مهما علا وعظم، بمقام الخالق وصفاته -سبحانه سبحانه، لا تقال إلا له-.

وإني إذ بثثتك بعض ما في نفسي لرسولنا الأكرم وأنا في حضرته متشرِّفًا بالجلوس في مسجده، فإني مُثَنٍّ بصاحبَيْهِ وبقية أصحابه -رضوان الله عليهم أجمعين-.

اعلم -أُخَيَّ- أن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أَجَلُّ من مشى على الأرض بعد الأنبياء والمرسلين؛ ولئن فهمت عني ما ذكرت لك من شرف المنتسب إليه، وطبقتها هنا اتضح لك الأمر، وعلمت أن لا مبالغة إذ نقول في شرفهم مثل هذا؛ فإن الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين-

نسبَهُم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى نفسه، فقال: «**لا تسبوا أصحابي**»، وأعظِمْ بها من نسبةٍ وشرفٍ يَقْطَعُ سعيَ عبدٍ أتى بعدهم أن يحاول اللحوق بمقامهم، فإنهم منسوبون إلى أكرم الخلق على الله تعالى، المصطفى من الرب -جل وعلا- مباشرة، فأيُّ قربٍ لمخلوق بعد الأنبياء والمرسلين أقرب للملك جل وعلا من قربهم؟!

ولا يحتج علينا بأتباع بقية الرسل والأنبياء؛ فإن الملك -جل وعلا- قال: ﴿**تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فلئن فُضِّل نبينا -صلى الله عليه وسلم- على سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين؛ فإن أصحابَه مقدمون مفضلون على سائر أصحاب الرسل، والحمد لله رب العالمين.

فإن وقر هذا في قلبك فتأمل عِظَم الخطر الذي تعرض نفسك له يوم تخوض مع السفهاء في رجل من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فضلا عن جمهورهم لأي سبب، فخالقهم -تبارك وتعالى- اصطفاهم أصحابًا لنبيِّه -صلى الله عليه وسلم-، ورضي عنهم جميعًا وأثبت رضاه في كتابه،

وكذلك نهى رسولُنا -صلى الله عليه وسلم- عن سبِّهم، وعظَّم لنا مكانَتَهم، وربهم يعلم أنهم سيقتتلون!

فأيُّ مجانين العبيد أنت لتحكم بين خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين في أمر لم تشهده ولم يطالبك الربُّ سبحانه فيه بِحكم أو رأي؟!

فأمسك -يا رعاك الله- ولا تنس مقامك أيها العبد!

أما ما دون ذلك من المؤمنين والمسلمين فإننا ننظر في حال كل عبد بمفرده، فكلما اقتربت صورته ظاهرا وما يترجم من الباطن بالأفعال والأقوال مما يرضاه الرب -تبارك وتعالى-، كلما زادت محبته في قلبك؛ لقربه -في الجملة- بالطاعة من الرب -تبارك وتعالى-، وعكسه العبد العاصي فإنه بقدر معاصيه وسوء فعاله الدالة على باطنه، على قَدربغض ذلك فيه، وانصرافك عنه لبعده عن الرب -تبارك وتعالى-، ولا تجاوز ذلك؛ لبقاء خُلَّةِ الإسلامِ وعُرْوَتِه!

فإن بلغ الكفر -وهو الذنب الذي لا يغفره الله تعالى- أبْغَضْتَه بكُلِّيَّتِك؛ لِكُفْرِهِ بربِّكَ وتكذيبِه لنَبِيِّهِ -صلى الله عليه وسلم-.

ولا يصح لك بحال أن تقول: لي معاملته الحسنة ولا مانع من محبته، وعليه كفره.

قال كعب الأحبار -رضي الله عنه-: **من أحب في الله، وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فقد استكمل الإيمان.**

فتأمل -أخي العبد- جعلك الله من راسخي الإيمان، والحمد لله رب العالمين.

وهذا آخر ما منَّ الله به على عبده قبل الرحيل من جوار سيد الخلق -صلى الله عليه وسلم- بين صلاتَي المغرب والعشاء، يوم الثلاثاء العشرون من ذي الحجة من عام أربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، ردَّنا الله إلى بلد نبيِّه مقيمين دائمين مجاورين، ورزقنا فيها رزقًا واسعًا

حلالًا مدرارًا، وختم لنا بشهادة في سبيله وفي بلد نبيه صلى الله عليه وسلم، اللَّهُمَّ آمين.



فصلٌ:
في التعامل مع كتاب الله تبارك وتعالى

اعلم يا عبد الرحمـٰن الودود الجميل أن أول ما يجب عليك تجاه كتاب الله -سبحانه وتعالى- هو الفرح به، والاستبشار بكلام الله -تبارك وتعالى-، والسعادة بوجود الفرقان الذي فَرَقَ الله به بين الحق والباطل!

ألم تسمع قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْتَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا تَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾[1] [يونس].

فإن علمت أن الفرحَ بكتاب الله -تعالى- وبما أنزل المولى -عز وجل- عبادةٌ في ذاته، فاعلم أن القرآن نزل ليُعمَل به، ولتؤتى أوامره، وتجتنب نواهيه، ويبحث عن حَلِّ كل معضلة فيه.

---

(١) رواية رويس عن يعقوب، وهي إحدى القراءات المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد أنزل الله كتابه تبيانًا لكل شئ وهدى ورحمة للمؤمنين، وجعله محكم البناء، متكامل المنهج، شديد ارتباط أجزائه، حتى إذا أردت أن تفهم عن الله أحكام الطهارة والصلاة وجدتها مرتبطة بالمواريث والحدود على سواء، وذلك لأن الجامع بينها جميعًا منهج واحد نزل من عند حكيم خبير، ولا ينظر في باب منها بمعزل عن الباب الآخر، لذا كان أصح ما يبدأ العبد به -في نظري- أن يفهم معنى عبودية الله -سبحانه وتعالى- قبل أن ينظر في حكمة الله في كل أمر ونهي؛ فقد قال سيدنا جُنْدُبُ بن عبد الله: «**كنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ونحن فتيان حزاورة** -أي: **قاربوا البلوغ- فتعلَّمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا**».

فإنك أيها العبد إن فقهت قول ربك -تبارك وتعالى-: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]، ثم فقهت عنه سبحانه قوله: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤]، خنست نفسك وعلمت قدرها، واعترفت بعجزها، وسلمت أمرها لخالقها وباريها، ثم نكست رأسها

ووقفت أمام آيات الملك بتواضع وذل وخشوع، تستسقي غيث رحمته، وتسأله الفتح كي تفهم عنه سبحانه، فيفتح لكل نفس بقدرما ملكت من تسليم وذل وانكسار وتأدب لسيدها ومولاها، وبما تتحمله من فتوحات وتجليات المولى -تبارك وتعالى-؛ فإن المخلوقات جميعًا متفاوتون في قابليتهم وتحملهم لتجليات الملك -تبارك وتعالى- وفتوحاته؛ فإنك ترى الجبل جعله الملك دكًّا، وترى موسى -عليه السلام- وهو من هو قوة وبأسًا قد خر صَعِقًا، وعلى النقيض ترى من أوتي بعض ملك الدنيا كقارون -لعنه الله- قد قال: أوتيته على علم عندي، ثم ترى سيدنا ونبينا سيدَ الخلق أجمعين محمدًا -صلى الله عليه وسلم-طبقةً وحده، فيخبر عنه الملك -جل جلاله-: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾! [النجم: ١٤]

فبعض القلوب ينجلي صدؤها على قدر الوارد!

وبعضها يشرق على قدر التجلي والنفحات!

وبعضها يتسفل -كلما فتح له معنى فوق طاقته- في الدركات!

فأما الأول فذاك المقتصد، وأما الثاني فذلك السابق بالخيرات بإذن الله، وأما الثالث فهذا الظالم لنفسه.

والظالم لنفسه على طبقات، فمنهم من يبقى في دائرة الإسلام مع ظلمه لنفسه، فذلك داخل في الآية الكريمة، وأما من تجاوز الحد حتى ظلم نفسه بالشرك والكفر بالله -كقارون لعنه الله- فقد خرج منها وأصاب أعظم الظلم -أعاذنا الله منه-.

فإن أدركت هذا المعنى، فاعلم أني أشرت في أول كلامي لك أن الذل والانكسار والخضوع ومعرفة قدر النفس أول باب الفتوحات والفهم عن الله -جل وعلا-، فبعضنا يتعجل الفتح من الله فربما أزَّته نفسه على أن يتعجل مقامًا ليس له، فإن حيل بينه وبين هذا المقام فهمًا وعملًا ادَّعاه، وهو أول دركات السقوط في مستنقع التقول على الله، وإنا لله!

فاحذر أخي العبد أن تدخل على كلام الملك بأحد قلبين:

قلب متكبر جبار، وقلب غافل لاهٍ عن العمل بما وعاه.

وإن الله -سبحانه وتعالى- أنزل كتابه على عبده ورسوله -صلى الله عليه وسلم- بواسطة جبريل -عليه السلام-، فأخذه جبريل عن رب العزة -تبارك وتعالى-، وأخذه النبي -صلى الله عليه وسلم- عن جبريل الأمين -عليه السلام-، فإن علمت أن الرب -تبارك وتعالى- اختار لنبيه -صلى الله عليه وسلم- مقرئًا معلِّمًا، فإياك أن تفضل نفسك من حيث لا تدري على سيد الخلق -صلى الله عليه وسلم-، فتقول:

أفتح كتاب الله -سبحانه- وأقرأ كيفما اتفق، ولست بحاجة إلى أستاذ معلم، فهذا من أسوإِ السوء وأكذب الظن!

فإذا شرعت في النظر في كتاب الله -تبارك وتعالى-، فاتخذ لك معلِّمًا يصححُ لك قراءَتَك، واحتسب هذا الأجر، ولا تتعجل النتيجة؛ فإن العبد لا يمل من العمل في إرضاء سيده وإن لم ير النتيجة العاجلة، فالعبرة بالامتثال والعمل بالتكليف، لا بالتمام والنتائج.

إشارة:

يأتي النبي يوم القيامة ومعه الرجلان، ويأتي النبي ومعه الرجل، ويأتي النبي وليس معه أحد.

والأنبياء خير الخلق بعد الرسل وكانت النتيجة: ليس معه أحد!

فالعبرة عند الملك بتمام الامتثال والعبودية، لا بكمال النتائج.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

ثم إذا شرعت في تصحيح قراءتك على الشيخ، فاعمل ما استطعت بكل آية تتعلمها، وخذ طريقة الصحابة -رضوان الله عليهم- منهاجًا لك ونبراسًا!

قال أبو عبد الرحمن السلمي -رحمه الله-: «**حدثنا من كان يُقْرِئُنا من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم كانوا يَقْتَرِئُون من رسول الله عشر آيات، فلا يأخذون في العشر**

الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل».

لذا جمعوا كل الخير!

فبدؤوا بالعلم الصحيح، ثم العمل بما علموه، ثم نشروا الخير، فسادوا البرية كلها في زمانهم!

خذ من كتاب الله قدرًا يسيرًا، وصحح قراءته على شيخك، وحبذا لو كان من أهل التفسير فيفسر لك الآيات، فإن فهمت الآيات فهمًا جيِّدًا مستقيمًا، فبادر بالعمل بما فيها قدر استطاعتك، فإن طبقتها، فادع الناس إليها، أو من استطعت أن تدعوه منهم، فتضرب بسهم من الخير في كل باب!

وهأنذا أذكرك بما ذكرناه في معنى العبادة أوَّلًا، ثم أُطَبِّق لك تطبيقًا عمليًّا على بعض الآيات لتقيس عليها وتعينك على العمل بما تعلمت، إلى أن يأذن الله بالتوسع في هذا الكتاب فيكون ما بعده موسوعة عملية لتطبيق أصل العبودية بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية، فإن نسأ الله في الأجل

وكتب لها التمام فمنه وحده الفضل والمنة، وإن كانت الأخرى فقد بَثَثْتُكَ ما في صدري ولم أكتمه عنك؛ لِئَلَّا أُلْجَمَ بِلِجَامٍ من نارٍ يوم القيامة، والله يسترنا وإياكم، ويكتب لنا ولكم الخير.

عود على بدء:

العبادة: اسمٌ جامعٌ لكل ما يُحِبُّه الله -سبحانه وتعالى- ويرضاه من الأقوال والأعمال، الظاهرة والباطنة.

اعلم أن كل آية في كتاب الله -تبارك وتعالى- وكل حديث من أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحثك على نوع من أنواع العبادة ويوقفك على طريقها، والعاقل هو الذي يتلمس أنواع العبادات فيها فيجتهد في تطبيقها؛ لعله يلقى الله تعالى فيقول:

ما تركت آية من كتابك ربي، حتى عملت بها ولو مرة!

ويلقى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يطلب شفاعته، وبين يديه وسيلته، قائلًا: يا رسول الله الشفاعة الشفاعة!

فإن وسيلتي إليك أني ما سمعت حديثًا بلغني أنك حدثت به حتى عملت به ولو مرة!

وهذا مقام الولاية بحق؛ فهذا إمام أهل السنة أحمد بن حنبل -رضي الله عنه- يخبر عن نفسه فيقول: ما كتبت حديثًا إلا وقد عملت به، حتى مَرَّ بي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت!

فلم تطب نفسه حتى عمل بالحديث، ويقول -رحمه الله- ما سمعت حديثًا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا عملت به ولو مرة!

إشارة:

أترى رجلًا ما ترك شيئًا مما بلغه عن الله -تبارك وتعالى- أو عن رسوله -صلى الله عليه وسلم- إلا وقد عمل به، فاستوى في نفسه العلم والعمل جميعًا، أَتُرَاهُ عجيبًا بعد ذلك ألا يثبت في المحنة إلا هو، وأفراد قلائل على شاكلته؟! اللّٰهُمَّ لا!

أعود فأقول:

لنأخذ سورة الفاتحة مثالًا ثم بعض آيات سورة الحجرات، فقد جمعا أمثلة الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، ثم نطبق ذلك تطبيقاعمليًّا لنصل معًا إلى كيفية النظر في كتاب الله تعالى بعين العبيد المكلفين المحتاجين رحمة ربهم ورضاه، الساعين لمرضاته، المجتهدين في عبادته.



فصل في معاني العبودية في سورة الفاتحة

يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ﴾

أول ما يبدأ العبد به أن يعلن أن لا بركة ولا توفيق ولا إعانة ولا سداد ولا تمام ولا كمال في قوله وفعله واعتقاده إلا بما ذكر اسم الله -تعالى- عليه، فيبدأ عمل الذكر وقول اللسان وتدبر القلب باسم الله وعلى بركة الرحمـٰن الرحيم، فجمعت البسملة الخير كله، قولًا وعملًا واعتقادًا، ثم يشرع في الثناء على الله -تعالى- بقوله -جل وعلا-:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾

والناظر المتأمل في تلك الآية يجد فيها القول الظاهر والباطن وهما جزءان من الأجزاء الأربعة في العبادة.

فإن العبد إذا قال الحمد لله رب العالمين فهي نتاج قول الباطن أنه ما من نعمة أُنعم عليّ بها وأولها شهادة أن لا إله إلا الله

وأن محمدًا رسول الله وكل جوارحي وحركاتي وسكناتي إنما هي محض منة من الملك -تبارك وتعالى- فله الحمد، وكل بلاء نزل بي فأُعِنت على الصبر عليه، أو كتبت لي به حسنة، أو حطت عني به خطيئة، أو رفعت به درجة، إلا وهو محض فضل المولى جل وعلا فله الحمد، وكل رزق رزقته من مال أو ولد أو عمل أو غيرها من نعم الدنيا فهي محض جود من الغني عز وجل، فله الحمد، وكل نفس من أنفاسي أو حركة أو سكنة فبالله -سبحانه وتعالى- فله الحمد.

وكل ما في الكون من نعمة نزلت بعبد من عباد الله منذ خلق الله الأرض والسماوات إلا ولله المنة والفضل، فله الحمد.

فالحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيبًا ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شاء من شيء بعد.

الحمد لله حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده.

الحمدلله حتى يرضى، الحمد لله حمدًا يليق بجماله وجلاله.

الحمد لله رب العالمين.

وإني ولله الحمد والمنة والفضل إذ رزقني الله وأكرمني بولدي «أُبَيّ»، وهو من جملة النعم التي أنعم الله عليَّ بها فإنه من حمد الله وشكره على نعمة العاطفة التي أودعها الله قلوب عباده تجاه أبنائهم، أُريت أن أتوجه بالكلام إليه من هذا الموضع فأبلغه رسالة جده له ولأبيه، وأبثه علمًا تركه جدُّه -رحمه الله ورضي عنه- لعله يكون امتدادًا لهذا الخير؛ ولأن النصيحة للولد قد تكون أصدق لهجة وأوفى عاطفة، وأخلص من شوائب القلوب التي يغرها المدح وطلب الثناء إن لم يتولها مولاها برحمته؛ فهذه معذرتي إليكم لعلكم تقبلونها، مشكورين.

أعود فأقول:

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

أي بُنَيّ:

يقول **الإمام ابن عطاء الله السكندري** -رحمه الله ورضي عنه-:

«اعلم أن الله كان لك قبل أن تكون لنفسك، فكما كان

مدبرًا قبل أن تكون ولا شيء من تدبيرك معه، كذلك هو -سبحانه وتعالى- مدبر لك بعد وجودك، **فكن له كما كنت له، يكن لك كما كان لك**».

كان الله -تعالى- مدبرَ أمرك مذ كنت في بطن أمِّكَ لا تملك لنفسك ضرًّا ولا نفعًا، بل لم يكن أحد يملك ذلك لك، ثم لا يزال الرب -تبارك وتعالى- مدبرٌ أمرَك بعد أن ولدت وكبرت وصرت عاقلًا مختارًا مُكلَّفًا، فكن له على ما كنت له في بطن أمك مستسلمًا متوكلًا معدوم الحول والقوة، يكن لك مدبرًا معينًا رزاقًا كريمًا رحيمًا كما كان لك!

من هنا -ولدي- تعلم: أنك لو بقيتَ تحمد الله تعالى مع كل نفس من أنفاسك منذ ولدت إلى يوم تموت -أطال الله بقاءك في الخير-، فإنك لم تُوَفِّ ربَّك حقَّه، ولا شيئًا من نعمه عليك؛ فإنه سبحانك تولَّاك مذ كنت في بطن أمك جنينًا لا تملك لنفسك شيئًا، فكفلك برعايته، وجعل لك متكئًا، وحاطك بالعناية، وساق إليك رزقك بغير حول منك ولا قوة، فلما حانت لحظة خروجك سخَّر لك من يتلقاك هاشًّا باشًّا

مستبشرًا بقدومك، ثم ساق لك طعامك وشرابك ورعايتك، وقذف في قلبَيْ والديك محبتَك، فأنت تتقلب في نعمه من حيث لاتدري، فإياك إياك أن تغفل عن تدبيره لك يوم تعقل وتميز ويُمِدك سبحانه بقوة وعقل تستعين بهما على عبادته؛ فإن القادر -سبحانه وتعالى- كما أمدك بكل هذه النعم قادر حينها على أن يسلبك إياها في طرفة عين!

ثم إياك -بُنَي- أن تستعين بتلك النعم على معصية الملك سبحانه؛ فإنه يُمْهِل عباده ولا يهملهم!

ثم اجعل تبرُّأَكَ من حولك وقوتك هِجِّيرَاك، واعلم أنك بغير ولاية مولاك لك صفرُ اليدين، عاجز عن كل خير.

وتيقن أن الله -سبحانه وتعالى- يدبر أمرك كله إن توجهت إليه بكليتك، وخرجت من حولك وقوتك إلى حوله سبحانه وقوته.

ثم تذكر قول الإمام:

فكن له كما كنت له، يكن لك كما كان لك.

ثم الهج بقوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فإن وقر في قلبك حمد ربك، ولهج به لسانك، فقل:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾.

الرحيم الذي هو أرحم بك من أمك التي حملتك فولدتك فأرضعتك وسهرت على حاجتك ورعايتك، فكانت تجوع لتشبع، وتديم السهر لتنام، وتمرض لتصح، وتشتغل بك لا بشيء سواك، أترى أحدًا أرحم بك منها؟ وربِّكَ الرحيم، لَلرَّحيمُ أرحمُ بك منها!

فكل رحمة وقرت في قلبها إنما هي من رحمة ربك بك، وهو رزقك الذي ساقه إليك، ومن جميل تدبيره لك، فكل ما وقر في قلبها من رحمة لك، بل كل ما وقر في قلوب عباد الله من رحمة فهو جزء من رحمته -تبارك وتعالى-، فإنما يتراحم العباد فيما بينهم برحمة ربهم بِهم جميعًا!

كيف لا، وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **«جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ**

وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا؛ فَمِنْ ذلِكَ الجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الخَلائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَه».

فإذا عملَ اسم الرحيم في قلبك، فاجمع إليه الرحمن، فرحمة الرحيم تسع الخلائق جميعًا في الدنيا، مسلمهم وكافرهم، إنسهم وجِنَّهم، فإذا كانت الآخرة رحم الرحمـٰن من آمنوا به سبحانه ووحدوه ولم يشركوا به شيئًا، ولم يتوجهوا لأحد من خلقه بالعبادة أو الاستغاثة أو المحبة، بل أخلصوا بكليتهم لله، حتى صاروا به وإليه وحده لا شريك له!

فإياك -بُنَيّ- أن يتكل قلبك على مخلوق مهما عظم شأنه وعلا مقامه؛ فإن الملك -تبارك وتعالى- فتح بابه لك، ولم يغلقه أبدًا دونك، ولا جعل بينك وبينه واسطة في عبادة أو استغاثة أو دعاء أو تضرع.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ... ﴾ [غافر: ٦٠].

ولا يغرنَّك -ولدي- زلة عالم إمام، ولا كبوةُ مجاهدٍ هُمَامٍ؛ فضلًا عن اغترارك بعمل الجهال والطِّغام؛ فإن ربك

-تبارك وتعالى- أخبر عن قوم يأتون يوم القيامة يجادلونه -سبحانه- في أنفسهم فيقسمون به في حضرته أيمانا مغلظة قائلين: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

فيجيبك العليم الحكيم: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤]، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

فلا تتعرض لسخط الملك بأقوالك وأفعالك، أو اغترارك بقول أو عمل لإمام أو عالم؛ فإنه يجادل عن نفسه ولربما غُفِر له، أما أنت فلا تدري مايفعل الله بك!

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

أقول: إياك أن تتعرض لسخط الله بأقوالك وأفعالك ثم تغتر بالرحمـٰن الرحيم؛ فإنه كما نصحت لك يرحم الكل في الدنيا برحمته، وفي الآخرة عذاب شديد للمشركين والكافرين، ومغفرة ورضوان منه سبحانه للمؤمنين الموحدين.

فالزم غرزك، تنج بإذن ربك!

وقد أعقب سبحانه ذكر اسميه (**الرحمـٰن الرحيم**) بصفته:

﴿مَلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، و: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

فهو مالك اليوم الذي ينتهي عنده كل شيء كان في الدنيا، فلا يبقى بعده إلا نعيم مقيم أو عذاب سرمدي في الجحيم، فأما الذين سعدوا بطاعة ربهم وتوحيده وعبوديته وعدم الإشراك به شيئًا في الدنيا ففي الجنة خالدين فيها، وأما الذين شقوا بمعصيته والإشراك به وجحود نعمته في الدنيا ففي النار خالدين فيها!

فإن أنت أعملت قلبك -بُنَيّ- في هذا اليوم العظيم وتأملت أحاديث نبيك -صلى الله عليه وسلم- في وصف هذا المشهد الشديد وأعملت قلبك في قول ربك: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ٢]، أقول: إن أنت تأملتها عملت

في قلبك عملها وكانت لك وقودا للطاعة لا ينضب، ثم ذكرت وصف أرض المحشر وخروج الناس من قبورهم لرب العالمين، ثم وضع الميزان وضرب الصراط على جهنم، ومرور الناس عليه فمنهم ناج وكثير منهم ساقطون، ثم نظرت إلى حال أهل النار وعذابهم وما توعدهم ربهم به إن هم أشركوا به وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد، ونظرت إلى حال أهل الجنة ونعيمهم وما وعدهم ربهم به من الخير إن هم أطاعوا رسله، إن أنت نظرت إلى هذا المشهد العظيم وَجدت لسانك يلهج بـ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ﴿مَلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، سبحانك سبحانك:

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

نعبدك ربنا وحدك لا أحد معك، ولا نتوجه لأحد سواك، ولا نقصد أحدًا إلا أنت، ولا نريد إلا وجهك.

ونستعين بك على عبادتك، فإنا بحولنا وقوتنا عاجزون، وعن كل خير مقطوعون، وعن الإخلاص مبعدون، فاللَّهُمَّ إنَّا نخرج من حولنا وقوتنا إلى حولك وقوتك سبحانك، ونستعين بك

على عبادتك، ونعوذ بك أن ننسب لأنفسنا فضلًا في طاعة أو عبادة، فإن وفقتنا لعبادة فبرحمتك، وإن أُغلق دوننا الباب فبذنوبنا ومعصيتنا لأمرك، فلك الحمد على كل حال، ولك الشكر في كل مقال وعلى كل مآل!

إياك سبحانك نعبد لا نعبد سواك، وإياك نستعين لا بأحد إلا أنت، فمتى أغلقت دون عبادك الباب حتى نستعين بغيرك، ومتى جعلت على بابك الحُجَّاب لندعو سواك، ومتى نسيت الفقراء من عبادك ليستغاث بغيرك أو يتوسل بأحد إليك!

سبحانك سبحانك أنت المتوسل به إليه، والمستغاث به في كل نائبة، والمستعان على كل عبادة، فاللّٰهُمَّ إنا نستغيث بك ونتوسل ونستعين بك ونلجأ، وندعوك سبحانك لا ندعو غيرك:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾.

الذي لا يُهدى إليه إلا بك، ولا يعان على سلوكه إلا بحولك وقوتك، ولا يولج إلا بإذنك، ولا يحال عنه إلا بإعراضك، ولا يُرْتَدُّ على العقب بعد سلوكه إلا بسخطك وغضبك فبرحمتك

التي وسعت كل شيء اهدنا الصراط المستقيم.

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴿٧﴾ ﴾.

أولـئك الذين خرجوا من حولهم وقوتهم إلى حولك وقوتك، فدانوا لك بالوحدانية، وشهدوا لنَبِيِّك بالرسالة، وتوجهوا لك سبحانك بالعبودية، ثم ماتوا على ذلك.

أولـئك الذين رضيت عنهم ورضوا عنك، وعبدوك حق عبادتك ولم يشركوا بك أحدًا من خلقك، فكنت سمعهم الذي يسمعون به وبصرهم الذي يبصرون به، ويدهم التي يبطشون بها، ورجلهم التي يمشون بها، فإن سألوك أعطيتهم وإن استعانوا بك أعنتهم، وإذا أتوك يمشون أتيتهم هرولة، فبحق كلامك وفاتحة كتابك إلا جعلتنا منهم، وأعنتنا على اللحوق بركبهم، وإن كنا دونهم ولا نرقى رَقْيَهُم، فإنا نسألك التوفيق.

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾.

نستعيذ بك أن نكون ممن يقرءون القرآن لا يجاوز

حناجرهم، أولـئك الذين أوتوا نصيبا من العلم فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلًا فبئس مايشترون، فعلموا ولم يعملوا، وحفظوا ولم يبذلوا، وطرقوا أبواب العلم ثم للعمل تنكروا، فغضب الله عليهم وسخط، وحق لمن نجا من حالهم أن يغتبط!

ولا تجعلنا ممن عبدوك بجهالة فظنوا أنهم يحسنون صنعا، ثم هم يرون ما صنعوا يوم القيامة يُجعل أمام أعينهم هباءً منثورًا!

فإن العبد بحق يتقرب لربه بما افترضه عليه، لا بما تهواه نفسه، ولا برهبانية ابتدعها، ما كتبها عليه ربه، ثم إذا به لا يرعى ما افترضه عليه ربه، بل ولا ما ابتدعه من عند نفسه، فحق لمثله أن يكون علما على الضالين يوم القيامة.

فاللَّهُمَّ إنا نعوذ بك من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ، ونعوذ بك من كل ما استعاذ منه عبدك ونبيك -صلى الله عليه وسلم-، ما عُلِّمنا منه وما لم نَعْلَم، فإنه قد بلَّغ وأدى الأمانة، فعلم منا من علم وجهل منا من جهل، والعجز والتقصير منا، حاشا أن

يكون من نبيك -صلى الله عليه وسلم-.

فالحمد لله رب العالمين، الحمد لله رب العالمين، الحمد لله رب العالمين.

إذا نظرت -بُنَيَ- إلى آيات أم الكتاب، وجدتها قد جمعت لك كل صنوف العبادة كما أسلفت لك، ففيها عمل القلب بالحمد، وقوله بالإيمان بالله وحده سبحانه والتوجه بالحمد له -تبارك وتعالى-، وقول اللسان بالحمد والذكر والثناء على الله بأسمائه وصفاته عز وجل، وعمل القلب في الإيمان باليوم الآخر يوم الدين واستحضار الآخرة، فتجمع لك الإيمان بالله وملائكته الذين هم حافِّين يومها من حول العرش يسبحون بحمد ربهم، والإيمان باليوم الآخر، ثم عمل الجوارح المضمَّن في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فدخل فيه كل صنوف العبادة وأولها أركان الإسلام من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة التي يُقرأ فيها كل ركعة بفاتحة الكتاب، وإيتاء الزكاة التي وردت أحكامها فيما يأتيك من الآيات، وصوم رمضان الذي لا يُستطَاع إلا بمعونة الملك،

وحج البيت وهو عبادة الجوارح والنفقة من مال الله، فشملت إياك نعبد كل أركان الإسلام، فضلا عما دونها من واجبات وسنن، وشملت إياك نستعين عمل القلب من توكل وإسقاط تدبير ولجوء إلى الله وتبرأ من الحول والقوة وطلب الإعانة منه سبحانه، ثم تنتقل بك لطلب الهداية، ولا تكون الهداية إلا بسلوك سبيل رسل الله الذين أوحى الله إليهم وحيه، فمنهم من أرسله بالكتاب ومنهم من بُعث بشرع أخيه من قبله من المرسلين ليجدد في الناس أمر دينهم ويحملهم عليه بالدعوة إليه.

فتم لك الإيمان برسل الله وبكتبه التي أرسلها معهم، ثم تبرأ إلى الله من طريق من أوتوا العلم ثم لم يعملوا به، ومن طريق الذين جعلوا ما أرسل لهم وراء ظهورهم وعبدوا الله على غير بينة ولا بصيرة فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وما ليس لهم به علم، فأعرضوا عن قدر الله فيهم ولم يرضوا بقضائه وتعجل بعضهم النعيم فاشتروا بآيات الله ثمنا قليلًا، فنالوا بعض الدنيا وخسروا الآخرة، وتعجل آخرون رضا الله فابتدعوا في دينه ما لا يرضاه وظنوا أنهم يحسنون صنعًا

فضلوا وأضلوا، فإن أنت التزمت الصراط المستقيم صراط الذين آمنوا بالله ولم يشركوا به أهواءهم ولا غيرها، رضيت بقضاء الله وقدره ولزمت صراط الذين أنعم الله عليهم؛ فتمت لك أركان الإيمان مع ما سبق من تمام أركان الإسلام، فوافق عملُك ما سألت الله من هداية للصراط المستقيم؛ لعله سبحانه برحمته وكرمه أن يجعلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولـئك رفيقا، والحمد لله رب العالمين.



فصلٌ:
نظرات في سورة الحجرات

يقول ربنا -تبارك وتعالى-:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾.

أي بني -جعلك الله من خيرة عباده المؤمنين- استمع إلى نداء ربك سماع العبد المذعن الذليل المنتظر تمام كلام ربه وأمره ليمتثل، فإن بلغ أذنيك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فاصنع بها ما نصحك به سيدك وصاحب نبيك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين قال: إذا سمعت الله يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعَك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه، فاسمع:

﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

اعلم -بُنَي- أنك إذا عملت بما في هذه الآية الكريمة اجتمع فيك الخير كله، ولم تلبث أن تكون قرآنا يمشي على الأرض، وتكون من أولياء الله -تبارك وتعالى-، فربك سبحانه يدلك على طريق الولاية من أيسر طريق غير أنه شديد إلا على مُوَفَّقٍ -جعلك الله منهم-!

لاتقدم بين يدي الله ورسوله رأيًا ولا قولًا ولا جدلًا ولا حجة!

لا تُقْدِمَنَّ أبدًا على فعل أو قول في أي شأن من شؤونك حتى تعلم قول الله تعالى وقول رسوله -صلى الله عليه وسلم- فتلزمه.

وكما أخبرتك سابقًا، ليس ثمة أمر من أمور حياتك إلا وهو -بِنِيَّة صالحة- عبادة تتقرب بها إلى الله تعالى، فمادام في الأمر صورة من صور العبادة لزمك أن تعلم ما يرضي الله فيه، حتى نومتك التي تنامها، إن نويت أن تنامها تستعين بها على عبادة ربك صارت عبادة، فأنت تتقلب في درجات

العبودية -ما صلحت نِيَّتُكَ- نائمًا أو يقظان، طاعمًا وشاربًا أو صائمًا، مصليًا متعبدًا أو متاجرًا، قارئًا للقرآن أو مداعبًا للزوجة والولدان!

فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:

«عَجِبتُ للمسلم إذا أصابه خيرٌ حَمِدَ اللهَ وشَكَرَ، وإذا أصابَتْهُ مصيبةٌ احْتَسَبَ وصَبَرَ.

المُسلمُ يُؤْجَرُ في كلِّ شَيءٍ، حتَّى اللقمةَ يَرْفَعُها إلى فِيهِ».

فإياك إياك أن تغفل عن مراد الله تعالى قبل كل قول وعمل، ولا يستجرينك الشيطان فتتعجل الكلام أو الفعال ليقال سريع البديهة أو حَسَن التَّخَلُّص أو جميل الأفعال، فالتَّأَنِّي والتَّرَيُّث اللذان عاقبتهما الخير وإن قيل بطيّ، خير من التسرع والعجلة اللذان عاقبتهما الشر وإن قيل ذكيّ.

فقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ:

«إنَّ فِيك خَصْلتَانِ يُحبُّهما اللهُ: الحِلْمُ، والْأَنَاةُ».

ثم اعلم -بُنَي- أن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما صلح حالهم ولا علا شأنهم ولا سادوا الدنيا في سنوات قلائل إلا بشدة متابعتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- والتمسك بهديه والاستنان بسنته، فهذا سيدك وسيد أبيك وجدك الصديق -رضي الله عنه- يقول: «**والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولو أن الطير تخطفنا والسِّبَاعَ من حول المدينة، ولو أنَّ الكلاب جرَّتْ بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزنَّ جيش أسامة، وآمر الحرس يكونون حول المدينة**».

لم قال الصديق ذلك -بُنَيّ-؟

لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عقد لواءه، وما كان للصديق -رضي الله عنه- أن يحل لواءً عقَدَه رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-، فكان الفتح العظيم على المسلمين ببركة الامتثال والمتابعة، لا بادعاء الحنكة والحكمة وفهم المقاصد وما قد تسمعه من أدعياء فقه الموازنات في زماننا هذا، أعيذك بالله منهم ومن شرورهم.

ثم انظر -بُنَيّ- في هذا النهي فإنك تجد العبودية فيه قد شملت كل جوانب العبادة، فإن أنت عملت بالآية فلن تقول قولا إلا ملتزمًا كتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم-.

فصار كلامك عبادة وصمتك عبادة، ولن تعتقد اعتقادًا إلا بعد أن تعرضه عليهما فإن وافقهما لهج القلب بذكره باطنا، ولهج اللسان بذكره ظاهرا، وامتثلت الجوارح فعملت بما فيه، ثم عمل القلب فيه فأثمرفهمًا عن الله وعلمًا وحكمة وتوفيقًا وسدادًا وتواضعًا وذلًّا لله سبحانه.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

فإن أنت اتقيت الله في كل حركاتك وسكناتك وكلامك وأفعالك، ولم تقدم بين يديه وبين يدي رسوله -صلى الله عليه وسلم- رأيًا ولا هوىً ولا قولًا لأحد، أثمر ذلك في قلبك خيرًا عميمًا ومعرفة بالسميع العليم؛ فإنه سبحانه يسمع قولك الظاهر والباطن فهو السميع، ويعلم عملك الظاهر والباطن فهو العليم، فإن تيقنت أن الملك -تبارك وتعالى- سميع عليم

خنست نفسك وخشيت أن تخالفهُ سبحانه؛ لأنك تأتيه يوم القيامة فيعْرِضُ عليك قولَك وفعلَك، فبأي شيء تجيب ساعَتَئِذٍ؟!

واسوأتاه منك، وإن عفوت!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾.

إياك -بُنَيَ- أن تظن أن هذا النهي مقصور على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذين كانوا معه قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى؛ فإنك تقدم مدينة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مقيمًا مجاورًا ووالديك، بإجابة الله -سبحانه وتعالى- لدعائي لك بذلك في بيته المعظم وفي موقف عرفات وفي مواجهة قبر نبيه الشريف -صلوات الله وتسليماته عليه-، فإذا بلغت الجوار وكنت في حضرة النبي المختار -صلى الله عليه وسلم-، فاقصد في مشيك، واغضض من صوتك، ولا ترفعه في حضرة سيدك ولا في مدينته ما حييت، وإياك أن تذكره باسمه مجردًا، ولا أن تكتب اسمه ثم لا تكتب

الصلاة عليه والسلام، ولا أن تتحدث عنه إلا بالإجلال والتعظيم، ولا تختصر الصلاة عليه في الكتابة مهما تكرر ذكره، صلوات الله وتسليماته عليه إلا أن يكون منك سهوًا -وأعيذك بالله من السهو في هذا الموطن-، ثم أكثر من الصلاة والسلام عليه ما حييت فإنها وصية جدك الصريحة، فقد حدثني مرارًا -رحمه الله ورضي عنه- قائلًا: **مفتاح الأمر في قيام الليل وكثرة الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-.**

وهو استنباطه من حديث سيدك -الذي سَمَّيْتُكَ بِاسْمِهِ- أُبَيّ بن كعب -رضي الله عنه- فيما يرويه عنه الإمام الترمذي في جامعه وحسَّنه أنه قال: «يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: **ما شئت،** قال: قلت: الرُّبُعَ؟ قال: **ما شئت، فإن زدت فهو خير لك،** قلت: النصف؟ قال: **ما شئت، فإن زدت فهو خير لك،** قال: قلت: فالثلثين؟ قال: **ما شئت، فإن زدت فهو خير لك،** قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال:

إذن تُكفى همَّكَ، ويُغفرَ لَكَ ذنبُك».

وقبله من قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ثم اعمَل -بُنَي- بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾.

فإياك أن تَذْكُره -صلى الله عليه وسلم- باسمه مجردًا، ويعاف قلمي أن يذكر لك مثالًا لتحذره، فافهم -وُقِيت السوء والفحشاء-!

فإذا ذكرتَه -صلى الله عليه وسلم- فقل: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وفعل نبي الله -صلى الله عليه وسلم- كذا، وعلمنا سيدنا ونبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- كذا؛ إلا أن يكون ذكرًا في عبادة، كالصلاة عليه في التشهد في صلاتك؛ فإنما الطاعة الامتثال، فقل الصلاة عليه كما وردت، ولا تعدِّل عليه -صلى الله عليه وسلم- بدعوى الأدب معه فتزيد فيها ألفاظًا؛ فإن فعلت فإن لك سلفًا من العلماء

غير أني لا أحب لك ذلك، وأحب لك الامتثال في كل أمورك.

ثم احذر أن يوقعك الشيطان ويؤزك شياطين الإنس على أن تتخذ كلمة من حديث لسيدنا ونبينا -صلى الله عليه وسلم- فتجعلها في مزاحك، وإن لم تقصد الهُزْءَ أو السخريةَ؛ فإنه ينافي إجلال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قلبك ويقتل محبتك له رويدًا رويدًا، ورب كلمة لا تلقي لها بالًا تهوي بك في النار سبعين خريفًا!

فكيف بكلمة في حق سيدك وسيد أبيك والناس أجمعين -صلوات الله وتسليماته عليه- ؟!

فهذا عمل جوارحك -بُنَي- بألا ينطق لسانك إلا بالخير إذا ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أو ذكرته أو حدثت عنه، وعمل قلبك دوام التذكير بنعمة الله علينا أن أرسله إلينا فعلمنا ديننا وكان الحبل الممدود بين السماء والأرض، فالزم حديث النفس لتكون من أهل العمل بقوله تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

[الفتح: ٩] والله يكتب لنا شفاعته يوم القيامة.

ثم خذ مثالًا كذلك تطبقه عمليًا من سورة الحجرات وهو قوله تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ**﴾ [الحجرات: ٦].

اعلم -بُنَي- أن أناسًا من الصالحين من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- الذين أَبْلَوْا بلاءً حسنًا في الإسلام، أقام عليهم -صلى الله عليه وسلم- حد القذف في كلمة سمعوها فحدثوا بها دون تثبت!

ثم اعلم أن سيدنا -صلى الله عليه وسلم- قال لصاحبه الفقيه العالم سيدنا معاذ بن جبل -رضي الله عنه-: «**ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم -أو على مناخرهم- إلا حصائدُ ألسنتهم**».

ثم اعلم أنه ما نزل بالمسلمين بلاء في هذه الأزمة المتأخرة مثل ما نزل بهم بسبب مخالفة هذه الآية!

ولم تنقطع الأواصر ولا فسدت العلاقات ولا قطعت

الأرحام ولا رمي بريئون بالسوء ولا هدمت بيوت بمثل: قيل أن فلانا فعل كذا، وقالوا أن فلانة أصابت ذنب كذا!

وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: «**إن الله كَرِهَ لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**».

وقال -صلى الله عليه وسلم-:

«**بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ: زَعَمُوا**».

فاللهَ اللهَ في لسانك!

مهما يكن من أمرٍ شغفتك معرفته وطفقت تسأل عنه، فإياك أن تحدث به حتى تتثبت جيدًا، وتتبين حقيقة الأمر!

فما بالك بأمر لم يشغلك يومًا ولا سألت عنه، ما لك إذا سمعت من أحدهم أمرًا تنقله لغيرك؟!

أو تظن أنك لو قلت كما يقولون: العهدة على الراوي أو كذا سمعت، أو كذا حَدَّثنا الثقة أنك قد أبرأت ذمتك أمام الله تعالى؟!

حاشا وكلا، بل والله إنك لمسؤول!

ثم اعلم واحفظ عني -بُنَي- هذه الكلمات:

ثلاثة أوصيك ألا يخوض لسانك فيها ما حييت:

الدماء والأعراض والأموال!

إياك أن تخوض في أمر يتعلق بحد من حدود الله؛ إلا أن تكون شاهدًا فإياك وكتمان الشهادة، أو قاضيًا وأعيذك بالله أن تكون ما لم تقم للمسلمين دولة على سنن الخلافة الراشدة.

ثم إياك وأعراض المسلمين، فصم أذنيك وأعم بصرك وأمسك عليك لسانك؛ فإنها والله مهلكة!

وتخيل نفسك في موضع من يُرمى بفاحشة أو يرمى أهله بها، ولو قرأت حادثة الإفك -لعن الله من اخترعها-، وتأملت ما نزل برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبزوجه أم المؤمنين الطاهرة المطهرة -رضوان الله عليها-، بمجرد إشاعة هذا الإفك لعلمت كيف يقتلُ البريءَ الخوضُ في عرضه، هذا وقد

برأها الله من فوق سبع سماوات، فكيف بمن ربما لا تظهر براءته إلا يوم يقوم الناس لرب العالمين؟

فيعيش حياته كلها جريحًا بكلمة شاركْتَ فيها ولو بإمرارها إلى غيرك دون تصديق ولا تكذيب!

إياك وأعراض المسلمين، واجعل سلامتهم أحب إليك من زَلَلِـهم، وبراءتهم أقرب إليك من تهمتهم، ثم لا يضرك بعد ذلك كانوا مذنبين أوبريئين.

ثم إياك وأموال المسلمين، لا تَخُضْ في ذمة مسلم إلا أن تقوم بينة كالشمس على سوء عمله وأكل أموال الناس بالباطل، وليس هذا مما يدرك بالمرة ولا المرتين؛ فإنا رأينا جموعًا من الناس ما قَصدَتْ أكلَ أموال الناس بالباطل ولا تضييع الأمانات؛ ولكن قلة الخبرة وضعف التجربة أدى بهم لظهورهم بمظهر آكلي أموال الناس بالباطل، وهم في أسوأِ أحوالهم -على التحقيق-: فيهم غفلة شديدة وسوء تقدير.

ولا ينفي ذلك عنهم الخطأ أن خاضوا فيما لا يحسنون،

وحملوا أمانة لا يدركون أبعادها، ولكنه تقدير الأمور بمقاديرها، لا غير!

فلا عليك أن تلتمس الأعذار للناس في ذلك، **وأن تخطئ في العفو خير لك من الخطأ في التهمة والحد!**

واعلم -بُنَي- أني ما أوصيتك بهاتيك الثلاثة خاصة إلا لأن سيدنا -صلى الله عليه وسلم- خَصَّها بالوصية فقال في خطبة حجة الوداع: «**ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وكحرمة بلدكم هذا**».

وكان يوم عرفة في شهر ذي الحجة الحرام في البلد الحرام.

فالزم ذلك تنج -بإذن الله-!

وإني إذ أبنت لك ما يجب عليك في تطبيق هذه الآية، فإني متمم لك النصح، فأرعني قلبك:

اعلم أن مجاهدة النفس لا تنقضي إلا بانقضاء حياتك، فإن وقعت في شيء مما ذكرته لك أو أقل من ذلك أو أكثر

-وأعيذك بالله من أن تحوم حوله فضلًا عن الوقوع فيه- فقم وأكمل جهادك، فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:

«ما مِنْ عبْدٍ مؤمنٍ إلا وله ذنبٌ يعتاده الفَيْنَةَ بعد الفيْنَةِ، أو ذنبٌ هو مُقِيمٌ عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا، إنَّ المُؤمنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا إذا ذُكِّرَ ذَكَرَ». -رواه الطبراني، وهو صحيح الإسناد-.

ولا تركن إلى اليأس ولا يُقَنِّطنَّك الشيطان من رحمة ربك، فإن اللَّعين لا يأتي بك إلى آخر الطريق مرة واحدة، وإنما يأخذ بيدك لتخطو خطوة في أوله فإن خطوتها فقد أتممت له بعض مراده، فإن استغفرت وتبت ورجعت خنس وأحرقَتْ قلبَه توبتُك، وإن طالت غفلتك -وأعيذك بالله أن تكون من الغافلين- بادر بك إلى خطوة أخرى حتى يرديك، وسيأتي بيان ذلك كله إن شاء الله في بابه، فاذكر ما أقوله لك، فإني بك مشفق، وعلى دينك حريص!

يقول الملك جل وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحجرات].

ولدي الحبيب لو أنك عملت بهاتين الآيتين وطبقتهما حق التطبيق وألزمت نفسك بهما فإني أضمن لك -بإذن الله- ألا ينطق لسانك إلا بخير ولا تتحرك جوارحك إلا لطاعة.

بُنَي أغلق باب الفساد كله ما وسعك ذلك، وباب الفساد: اللسان!

فكل ما لم يخرج بعدُ أنت مالكُه، فإن خرج من لسانك ملكَكَ!

وانظر إلى كل نهي في الآيتين تجده بغير اللسان يرجى فيه

العذر والمغفرة.

فإنه يقع في قلبك بعد رؤية أحدهم أو سماع صوته السخرية من هيئته أو كلامه أو فعاله، فإن أنت استعذت بالله وتذكرت نعمه عليك واستحضرت قدرته على أن يحول حالك إلى أسوأ من حال عبده الذي كنت تسخر منه ويعافيه مما هو فيه، ما ضرك حينها ما وقع في قلبك، فإن ربنا -تبارك وتعالى- أخبر في كتابه: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إِنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ به أَنْفُسَهَا، ما لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ**»، فطالما حبست كلامك فلم يخرج من لسانك وسعتك مغفرة الله ورحمته، وإن خرج من لسانك صار لعباد الله عندك حقوق وجب عليك ردها، فألزمت نفسك وحملتها فوق طاقتها وقد كنت في غنى!

۞ إشارة:

ودَعْ عنك -بُنَيِ- مصطلحات أهل زمانك التي ابتدعها

لهم غير أهل لسانهم ولا ملتهم؛ فإنَّ نبيَّنا -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن أناس يتبعون سَنَنَ من كان قبلهم من أهل الملل الأخرى، حتى إذا دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ دخلوه وراءَهم، فلا تلتفت لمصطلحاتهم ولا تجاريهم فيها، ولا تستهن بأثر متابعتهم على كلماتهم؛ فإن صاحب المصطلح يزيد فيه وينقص بما يتراءى له؛ فإن أنت التزمت مصطلحه ألزمك أن تأخذ كل ما أدرجه تحته من معانٍ، حتى وإن كانت باطلة، أو لم يرض منك بتبعيضه أو أخذ ما يوافقك، فماذا عليك لو تركته ومصطلحه، وأخذت بما أوحى به الخالق الذي يعلم وحده من خلق وهو اللطيف الخبير.

فَسَمِّ الأمورَ بما سماها به الله -تبارك وتعالى-، فاجتنب السخرية بكل معاني كلمة السخرية التي تفسرها سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأفعاله وأقواله، ثم أقوال أئمة المسلمين وعلمائهم، ودع عنك المصطلحات اللقيطة من عينة: التَّنَمُّر ونحوها؛ فليست منا ولسنا منها وإن وافَقَ بعضُ الحق الذي فيها ما عندنا من الخير.

أعود فأقول:

ثم تأمل بقية ما أتى في الآيتين كاللمز والتنابز بالألقاب، والغيبة، تجدها جميعًا مرتبطة بعمل اللسان، فهي في صدرك مكتومة ما لم تحدث بها بلسانك، فإن خرجت كتبت عليك، بل حتى ظن السوء وكذلك التجسس وإن كان ظاهر الأول عمل القلب، والآخر عمل الجوارح كالسمع والبصر؛ فإنهما وإن كانا في نفسهما سيئات، فإنهما لا يتعاظمان حتى يحدث المرء بلسانه ما ظنه من السوء، وحتى يُشِيعَ ما تجسس لأجله فرآه أو سمعه!

فأغلِقْ باب السوء ثم اعمل على كل واحد من هذه الأبواب حتى تخلص نفسك من أكدارها واحدًا بعد واحد، واشغل نفسك دائما بما يناقضها، فإنَّ النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، ونفسُك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل!

وإنِّي مضطر -بُنَي- إلى أن أنتقل بالقلم إلى أبواب الكتاب الثلاثة التي وضعتُه لأجلها، وما ذكرته لك فهو إشارة فقط

في كيفية تعاملك مع كتاب الله تعالى، وكيف تستخرج منه تكليفك الذي تعمل به، فإن أنت التزمت هذا المنهج في تعاملك مع القرآن كنت -بإذن الله- من العالِمين العامِلين به، وكذلك افعل مع سنة النبي -صلى الله عليه سلم-، وإن كتب الله البقاء لأبيك وسخر له نفسه وأعانه عليها، توسعت في هذا الكتاب فجعلته موسوعة للعبودية أَمُرُّ على آيات الكتاب العزيز كلِّه فأستخرج منها ما يفتح الله به من معاني العبودية فيها، والتكليف الذي كلَّف الله به عباده، ثم مررت به على حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فصنعت به ما أصنع مع كتاب الله -تعالى-!

وأمَّا إن كان الأجل أسبق؛ فإني أرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ في تعليمك، ووضعتك على أول الطريق الذي وضعني جدك عليه -رحمه الله وغفر له-، فتُتِمَّ ما بدأه جدك، وخطَّ معالمَه أبوك، ثم ادع لي ولجدك بالرحمة والمغفرة، والحمد لله رب العالمين.



كتاب العبودية

أَيْ بُنَيّ، هذه عصارة تجربة أبيك، وما نقله عن جدك -رضي الله عنه ورحمه-، وما فتح الله عليه به من معاني العبودية، فأصغ لها سمعك، وأعمل فيها قلبك ما وسعك؛ فإنها تسهل عليك -بإذن الملك سبحانه- أمورًا وَدَّ أبوك لو رجع به الزمان فيعمل بها؛ لكان في ذلك خيري الدنيا والآخرة -إن شاء الله-، ولكنْ قدر الله وما شاء فعل، ولعله سبحانه ادَّخَرها لك؛ عسى أن تكون على الحالِ الذي تقرُّ به عيني كل موحد مسلم، ويُنتَفعُ بك ما لم يُنتَفعْ بأبيك، فخذها بقوة -يا رضي الله عنك-.

اعلم -بُنَي- أن أبواب العبودية التي تنتظم بها حياتك كلها **ثلاثة أبواب**:

أولها وأعظمها: باب العبودية في علاقتك بربك -سبحانه وتعالى-، وتبعًا له خاتم المرسلين وسيد ولد آدم أجمعين سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-.

ثانيها وبه تحوز القلب السليم: باب العبودية في تزكية قلبك وتهذيب نفسك وإصلاحها وتولِّي قِيادَهَا.

ثالثها وبه تتم الأبواب: باب العبودية في علاقتك بالخَلْقِ.

ثم اعلمْ -بُنَيَ- أني بدأت الأبواب بما بينك وبين ربك؛ لأنَّه لا ينصلح قلبك حتى ينصلح ما بينك وبين ربك، ولا ينصلح ما بينك وبين الناس، حتى ينصلح ما بينك وبين نفسك!

فإن أنت أفسدت عليك قلبك، فأيُّ إنسان أغلى عليك من نفسك لتحفظ ما بينك وبينه وأنت مضيعٌ نفسَك؟

وإن أنت أفسدت ما بينك وبين ربك الذي خلقك فسوَّاك فعدَّلَك، ورزقك وأنعم عليك ورعاك ورباك ودبَّرَ لك، فلنْ تستقيمَ لك نفسُك بعدها، وبالأحرى لن يستقيم لك ما بينك وبين الناس، إلا أن تكون من ذوي الوجهين -أعيذك بالله من ذلك-!

ولا يُلَبِّسَنَّ عليك أحدٌ بأَنَّ الناس قد يفسد ما بينها وبين الله تعالى ثم يصلحون ما بين بعضهم البعض؛ فإنَّ

توافق النتائج لا يلزم منه تَطَابُقُ المقدمات، والله سبحانه أمر عِبادَه بالمقدمات ولم يسألهم عن النتائج؛ فإن ربك قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم- بعد أن أمره بدعوة الناس لتوحيد الله والإيمان، وعدم الإشراك به: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾! [يونس: ٩٩].

وهٰؤلاء أنبياء الله يدعون أقوامهم ثم يأتي النبي وليس معه إلا واحد آمن بدعوته، ويأتي أخوه النبي وليس معه أحد، وهم خير خلق الله بعد إخوانهم المرسلين!

والشاهد: لا يغرنك ظاهر صلاح علاقات الناس بعضهم ببعض في كثير من الصور، تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى؛ فإنها قد تنصلح ظاهرًا بقوة القانون والسلطان، وقد تنصلح بالمصالح التي بينهم، وقد تنصلح بالعجز عن إتيان نقيضها، وغيرها من أسباب قد تنصلح بها علاقات الناس ظاهرًا؛ حتى يأتي البلاء والامتحان، **فعند صليل الزَّيْفِ يصدقُ الابتلا**!

فمن كان ذا أصول أصلها ثابت وفرعها في السماء آتت أصوله أو فروعه أُكُلَها فثبت على الخير وعامل الناس بأصله، لا بما جَدَّ من أحوالهم!

ومن لم يكن له أصول قَلَعَه البلاء من جذره فتخطفته طيور الأهواء أو هَوَتْ به رياح الشبهات والشهوات في مكان سحيق!

فإياك أن تغتر بظاهر أحوال الناس والزم أصولك ما حييت؛ فإن الفتنة إذا أقبلت عرفها العلماء وحدهم، وإن هي أدبرت عرفها كل أحد!

ولا يكون العالم عالمًا عارفًا بحق إلا أن تكون له أصول يعرِض عليها كلَّ نازلة؛ فإن فُتح له فَفَهَّمه المولى -تبارك وتعالى- إياها تكلم ونصح ثم خاض إنْ وجب عليه الخوض فنجا ونجا الناس معه، أو حذَّر من الخوض إن وجب عليه اعتزالها وعدم الخوض فيها إذا بان له بأصوله أنها مهلكة، فإن لم يَفْهم ما فيها ولم يُفْتح له أمسك تمامًا عن الخوض فيها

بإيجاب أو بِسَلْبٍ؛ فإذا سئل لم يزد على قول: لا أدري!

وليس من وراء تِيكَ الثلاثةِ حبة خردل من علم!

فخذ -بُنَيَ- أصول أبواب العبودية الثلاثة بقوة، واعرض عليها عبادتك وقلبك ومعاملاتك، وتوقف قبل أي خطوة تخطوها في تلك الطرق الثلاثة فرُدَّها إلى أصل العبودية؛ فإن بان لك العبودية فيها واتضح لك ما يرضي الله سبحانه عنك فاسعَ وهرول وفر إليه سبحانه بكُلِّيَّتِكَ ولا تخف؛ فإنك تجده سبحانه أسبق إليك منك إليه، والله يتولاك -بُنَيَ- ووالديك وأهلك جميعًا والمسلمين برحمته وتوفيقه وسداده، وعنايته ومعونته وإرشاده، والحمد لله رب العالمين!.



باب العبودية
في علاقة العبد بربه -تبارك وتعالى-، وتبعا له خاتم المرسلين وسيد ولد آدم أجمعين سيدنا -محمد صلى الله عليه وسلم-

قال -صلى الله عليه وسلم-:

«كان الله ولم يكن شيء غيره»

تأمل -بُنَيِ- هذه الكلمات، وكررها مرارًا، فإنها مفتاح الباب كله، وما يأتي من أبواب!

«كان الله» -سبحانه وتعالى-، وهو الأول -سبحانه- الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر -عز وجل- الذي ليس بعده شيء.

إياك أن تقرن أحدًا بالله -تبارك وتعالى-، مهما عظم شأنه وعلا مقامه، ولو كان سيد الخلق -صلى الله عليه وسلم-، فما بالك بمن هو دونه؟!

ثم إياك أَنْ تفهمَ أَنَّ هذا تقليل من مقام سيدنا رسول الله

-صلى الله عليه وسلم- بأي وجه من الوجوه، بل هو وربي تكريم له وتشريف وتعظيم وإنزال له منزلته العظمى؛ فإن الله -سبحانه وتعالى- كان ولم يكن شيء غيره، لا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا من دونه وما دونه!

فربُّك -سبحانه- هو المتوجَّهُ إليه بِذَاتِه، وما دونه فمتوجه إليه بما وَكَلَه الله تعالى إليه، لا بذاته؛ فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما بلغ منزلته التي بلغها إلا باصطفاء الملك -تبارك وتعالى- له، ونحن إذ نُذْعِنُ لأمر الملك وحكمته وعلمه آمنا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصدَّقْناه واتبعنا النور الذي أنزل معه من عند ربنا -تبارك وتعالى-، وإنَّ كل أوصاف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- العظمى تجدها مضافة لاسم الله -تبارك وتعالى-، فهو عبد الله، ورسول الله، ونبي الله، وخليل الله، وهي أعظم أوصاف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لشرف المنْتَسَب له، وهو الله -سبحانه وتعالى-!

إذا بلغك -بُنَيّ- هذا المعنى، فاعلم أنَّ أَوَّلَ ما يتوجَّه إليه قلبك في كل شؤونك وأمورك وقراراتك وعبادتك وعلمك

وبحثك هو الله -سبحانه وتعالى- ومراده فيما تُقْدِمُ عليه!

فابحث أوَّلَ ما تبحث عن مراد الملك -جل جلاله- منك، فهو سيدك وحده لاسيد على -الحقيقة- سواه!

وقد جالستُ جدَّك -رحمه الله ورضي عنه- يومًا فقلت له:

كيف تصل إلى حد اليقين بالله وفي الله؟

فقال: إنما أنت عبد!

فقلت: فماذا؟

فقال -رحمه الله ورضي عنه-:

إنْ علمتَ أنك عبدٌ، وأنه سيِّدُك، وأنه متصرفٌ فيك كما يشاء، وفي الوقت الذي يشاء، وعلى الوجه الذي يشاء، فاعلم: أنك ملزم بالطاعة.

ثم إذا نهاك عن أمر فاعلم أنك ملزم بتركه،

وإذا أباح لك شيئًا فاعلم أنه محضُ مِنَّةٍ منهُ وفَضْلٍ.

فإذا كافَأَك على شيء فلم يك باستحقاقك له، إنما هو محض تفضل وكرم منه -تبارك وتعالى-.

فإذا زاد في العطاء، زدت في الشكر.

فإذا صرفه عنك كُلِّيَّةً، فقد كافأك بما لا تستحق مدة من الزمان، يأخذها وقتما يشاء، ويتركها لك كيفما يشاء!

فإذا أمرضك أو كتب لك الضراء، فاحمده واشكره على ما سبق من السراء، واعلم أنه أبقى لك نِعَمًا أخرى.

فإذا ضاعت عينك فقد ترك لك الأخرى!

وإذا ضاعت كلتاهما، فقد ترك لك باقي الجوارح!

فإذا ضاعت الجوارح كلّها، فقد ترك لك قلبًا مؤمنًا!

فإذا قَبَضَك على هذه الحال، فقد قبضك لنعيم لا ينفد، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، ولم تكن بعملك أيضًا؛ إنما هي محض منة وفضل ورحمة منه -تبارك وتعالى-، وإنما أعمالك تؤكد امتثالك لسيدك وطاعتك له فقط!

فإذا علمت كل هذا، فكيف بمن وعدك جنة الفردوس خالدًا مخلدًا فيها، وهو -سبحانه- غير ملزم بأن يكتب لك نعيمًا لا ينفد!

فالسيد الجبار المتكبر الخالق لا يلزمه شيء!

إنما هو محضُ كرمٍ منه وتفضُّلٍ على عباده!

إن فهمت كلامي، فكيف أنت الآن أيها العبد؟!

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

لا أكذبك -بُنَي-!

خرجت يومها من غرفة جدك -رحمه الله ورضي عنه- وأنا في صدمة شديدة، حاصلها: بالله يا عمر: هل عرفت ربك قبل هذه الساعة؟!

يا الله!

كم أسأت الأدب معه -سبحانه- فأمهلني!

وعاملته معاملة النِّدِّ، وأستغفره سبحانه.

أو على أفضل حالٍ عاملته معاملةَ الوالدين، فأتزلف إليه حينًا، وأتمنَّع عليه أحيانًا، وأتشتت تارة وأتهتك تارة،

ثم أطلب الستر أحيانًا، ثم أفرح بنعمته تارة، وأغضب -وأستغفره- تارة؛ كأنما هو نِدِّي!

أو كأنما وجب عليه -معاذ الله- أن يعاملني بما أحب أن يعاملني به!

يا عُمَرُ: أهذا ظنك بالله؟!

بعدها قرأت قوله تعالى:

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

فزلزلت نفسي وتبينت بها حقيقة سوء أدبي مع الخالق -جل جلاله-!

بعدها -وبعدها فقط- فهمت استنكار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين أتاه الرجل يقول له: إنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله!

فكأنما سَوَّى الرجل بين الله وبين رسوله وجعلهما نِدَّيْن، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: سبحان الله سبحان الله، فمازال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال:

«ويحك! أتدري ما الله؟

إن شأن الله أعظم من ذلك.

إنه لا يستشفع بالله على أحد». رواه أبو داود بإسناد صحيح.

ما أردتُّ قولَه -بُنَي- وأخشى أن أكون قد أطلت عليك، أن تعرف ربك قبل كل شيء، وأن تلزم أهل الله بحق!

أولـئك الذين فنوا عن أنفسهم فلم يعودوا يرونها، ولا يطلبون لها رياسة ولا سمعة ولا تصدرًا ولا شهرة، فكل حديثهم عن الله وبالله وفي الله!

لا يدعون الناس لأنفسهم، وإنما يشيرون لهم ويدلونهم على الطريق، ثم يذوبون خشية أن تتعلق القلوب بهم فتذهل عن الأصل الذي دعوا إليه واستعملهم ربهم فيه، وهو الدلالة عليه وحده -سبحانه-!

فإنَّا قد ابتلينا بأقوام حدثونا عن كل شيء إلا عن الله، ودلونا على كل شيء، حتى الخلاف بين طوائف قد انقرضت، وما دلونا على طريق الله -سبحانه-!

بل إن بعضهم إذا شعر أن ترقيق القلوب قد وجب وقته وحان أوانه حتى لا تمل القلوب وتفتر من علوم قواعدها جامدة، يشرع في الحديث عن الرقائق والتزكية، فإذا بك تراه يحول الحديث عنها إلى من ضل وشطح في هذه الأبواب والتحذير منه ومن ضلاله!

أو يأتي آخر على نقيضه فيحدثك عن المحرومين من نفحات أهل الله وبركاتهم وفيوضاتهم، أولـئك القساة القلوب الذين حال بينهم وبين الأولياء مفاوز إنكار الكرامات وأحوال السادات من العباد والزهاد، ثم ينهي كلامه بقوله: ومن ذاق عرف!

فتجد نفسك تصرخ فيهم جميعًا: يا قوم! أين الله؟!

أين الله تعالى في كلامكم؟

أين دلالتكم عليه؟

أين حديثكم عنه؟

أين تحبيبكم خلقَه فيه؟!

أين الطريق إلى الله، لا لأحد سواه؟!

حينها تعي حال الثلاثة الذين خلفوا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

فتعود أدراجك لتسأله سبحانه وحده وتتوسل إليه به وتستغيث به أنْ رَبِّ خذ بناصيتي إليك!

رب دُلَّنِّي عليك!

رب عرِّفني بك!

رب اهدني إلى الحق، وأنت سبحانك الحق!

فتجد بابه -سبحانه- مفتوحًا لم يغلق يومًا دونك، غير أنك لم تحسن طرقَهُ يومًا!

فتدخل على الملك -سبحانه- بنفْسٍ غير التي كانت بين جنبيك!

نفسٌ غُسِلَتْ بماء الذُّلِّ، وتطهرت بمسك الخضوع والتواضع، وتطيَّبتْ بزعفران العبودية، وتضوَّع منها عبقُ التوحيد، فوقفت بين يدي ربها طاهرة نقية، مطيبة مطهرة سويَّة، ترجو رحمته سبحانه وحده، وتخشى عذابه، وتنظر إليه بعين العبودية الخاضعة للملك القهار الجبار الواحد الأحد، ثم تتطهر من دنس الرياء والشرك في النوايا والعبادة وطلب الثناء والمدح ونظر المخلوقين، ولا تنشغل إلا بنظر الخالق -سبحانه-!

حينها تشهد شهادة معرفة ويقين: أن لا إلٰه إلا الله، محمد رسول الله.

فإذا بلغت -بُنَي- إلى هذا الحد فاعلم أن كل ما يأتي من أبواب، سواء كانت عبادة أو معاملة أوتزكية؛ فإنها ليست مقصودة لذاتها، فلا تظنَّن ظن السوء وتخيل إليك نفسك أنَّ صلاتَك أو صومَك أو معاملتَك الحسنة أو خلقَك الطيب يضمنُ لك الجنة!

كلا والله؛ بل ربما كانت مجتمعة سببًا في جلوسك إلى جوار إبليس -لعنه الله- في الدرك الأسفل من النار -أعيذك بالله من هذا المقام-!

فاحفظ عني ما أقول -بُنَيَ-:

اعلم أنه ما من عبادة ولا خلق حسن ولا معاملة طيبة إلا هي صورة من صور العبودية للخالق -تبارك وتعالى-، ولا تنفع في ذاتها، وإنما الذي ينفع هو الخضوع والامتثال والالتزام بالتكليف.

ولا يهولنَّك الكلام؛ فما أتى به أبوك من عند نفسه -وما كان له أن يفعل- بل هو كلام سيدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذ يقول : «**لن ينجي أحدًا منكم عملُه.**

قال رجل: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته، ولكن سددوا».

فما الذي بقي لابن آدم إن كان عمله لا يُبَلِّغه ولا يضمن له الجنة؟

يبقى له العبودية لله والامتثال للتكليف بغير اعتقاد فيه أنه سبب نجاته.

وتعال معي -بُنَي- نذكر بعض صور عبادتك لربك كي تقيس عليها كل عبادة فتعرف كيف تمتثل، وكذلك كيف تنظر لحقيقة عملك حتى لا تغتر به مهما عظم شأنه في نظرك!

روى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ربه -تبارك وتعالى- أنه قال:

«من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».

اعلم -بُنَي- أن الله تعالى حين أوجب على خلقه عبادته،

لم يتركهم بعدها هملًا يتخبَّطون، أو يعبد كل واحد منهم ربه على طريقته وما يميل إليه هواه، بل ابتلاهم بالتكليف لينظر كيف يعملون، ثم يتفاوتون في العمل فينظر أيهم أحسن عملًا.

فإذا أردت أن تكون من أولـئك الأولياء الذين إذا عاداهم الناس آذنهم الله بالحرب، فالزم ما بيَّنَه لك ربك -تبارك وتعالى-؛ فإنَّ كل شيء عند ربك بميزان ومقدار، ثم انظر إلى ذلك الميزان وسل نفسك:

لمَ كان الفرضُ أحبَّ الأعمال إلى الله -تبارك وتعالى- حتى وإن قَلَّ في الكَمِّ عن سُنَّةٍ يتقرب بها العبد إلى الله؟

ولمَ كانت السُّننُ مهما بلغ صاحبها في الاجتهاد فيها دون رتبة الفرض وإن قلَّ -ظاهرًا- عن السنن؟

ولمَ كان صيام رمضان خير لك من سرد الصيام السنةَ كلها وأعظم أجرًا وأرجى عند ربك؟

ولمَ كان الحجُّ مقدمًا على كل نفقة وجهد بعد النفقات الواجبة، وهو خير لك من الصدقة المطلقة ولو كانت بألف

ألف دينار من الذهب؟!

كل هذه الأسئلة -بُنَي- تجد جوابها في كلمة واحدة: العبودية!

أيْ ولدي:

لن ينفعَك عملُك مهما اجتهدت فيه حتى تفهم الفارق بين الخالق والمخلوق، بين الرب والعبد، بين السيد والنِّدّ!

أما الخالق والرب والسيد فهو الذي يأمر ليُطاع، وينهى ليُجْتنب ما نهى عنه، ولا يُسْأل عما يفعل، ولا يلزمه توضيح ولا بيان لما أمر به، فإن فَهِمتَ حكمته في أمر فمحض منةٍ منه أن فَهَّمك، وإن لم تفهم حكمته فلقصور عقلك ومحدوديته، لا لنقص في تشريعه أو حكمته -معاذ الله-، وكل أفعاله حكيمة -سبحانه-!

وأما المخلوق والعبد والنِّدُّ فلا يرقى أحدهم ليناقش الخالق والرب والسيد في أحكامه أو أوامره ونواهيه؛ فضلًا عن التعديل عليها، أو تقديم شيء بهواه، أو بما يراه أصلح في نظره، فهذا يصلح مع الند والنظير، أما الخالق -سبحانه- فلا ينفع

معه شيء من ذلك، بل هو بريد الكفر به -والعياذ بالله-!

فإنَّ العبدَ لا يزال يتجرأ على سيده فيناقشه في أوامره ونواهيه، فيبين له سيده حكمة الأمر والنهي، حتى يظن العبد أن قد صار له الحق في أن يعرف كل حكمة ليمتثل؛ فإن لم يعرفها تفلَّت منها، أو رأى أنه لا يلزمه الانقياد!

فإن زاد الكبر ونسيان حقيقة النفس رأى تقديم أمر على أمر وطاعة على طاعة وولوج باب منهي عنه حقا مكتسبا!

فَقَدَّم ما شاء من الطاعة ظنًّا منه أنها أولى من غيرها، فقدم السنن على الفروض أو اكتفى ببعضها عن الفروض أصالة، فقدم حج النافلة والعمرة على الصلاة، وقال بملئ فيه: يكفيني الحج كل عام ليغفر لي ترك الصلاة، أو صيام الاثنين والخميس لتأخير الصلوات عن أوقاتها، أو الصدقات التي أُكْثِرَ منها على زكاة المال المفروضة، وغير ذلك!

فإن تعاظمت رؤية النفس انتقل إلى المنِّ الصريح على الله ثم عباده بالطاعة والعمل الصالح وحسن الخلق أو كف

الأذى، حتى ينسلخ من دينه وهو لا يدري!

نعوذ بالله من سوء المآل!

فاعلم -بُنَي- أن أول ما يجب عليك ألا تنساه أبدًا قوله -صلى الله عليه وسلم-: «كان الله ولم يكن شيء غيره».

تذكر دائما وأبدًا أنك في جَنْبِ الله: لا شيء!

تذكر دائما أن الخالق سبحانه يفعل ما يشاء ويأمر ليطاع!

تذكر أبدًا أنك إذا قدمت مرادك على مراد الله منك؛ فقد خضت أوسع أبواب هلكتك!

وربما تكون حينها من أهل هذه الآية:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف].

أو من أهل الآية الأخرى الذين يقال فيهم: ﴿ **وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا** ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان].

وأول ما يجب عليك تجاه آيات ربك التي تؤمن بها أن تسلم وجهك له، وتَسْتسلم له سبحانه ولحكمته وعلمه وأمره ونهيه وسطوته وجبروته، وتدبيره ومعونته، وقوته ورحمته، وتلزم حدك ما بقي فيك عرق ينبض! فإذا امتلأ قلبك بهذا المعنى -ولدي- فانظر في طريق الولاية الذي أخبرك به سيدنا ونبينا -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه: «**ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه ...**»

هذا أول دليل على الامتثال، أن تتقرب لله سبحانه بما يحب هو، لا بما تهواه نفسك أو يسهل عليها عمله، أو تميل إليه جوارحك؛ لذا ترى أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يبايعونه أول ما يبايعونه على: «السمع والطاعة، في المنشط والمكره».

هذا المكره الذي يخالف هوى النفس ويقلقها ويقض مضجعها!

۞ إشارة:

اعلم -بُنَي- أن خيرَ الصيامِ وخيرَ القيامِ -كما أخبرنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم- صيامُ داودَ -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- وقيامُه، فقد كان يصوم يومًا ويفطر يومًا!

وينام نصف الليل ثم يقوم ثلثه ثم ينام سدسه!

والمتأمل في الحكمة من ذلك يجد -فضلا عن دفع السآمة التي رآها أكثر الفضلاء- أن مخالفةَ هوى النفس أظهرُها!

فإن النفس تميل إلى العادة والاستقرار والركون إلى الشيء تديم عليه حتى يسهل عليها فعله!

فصيام يوم وإفطار الذي يليه يفسد عليك ذلك، ويجعلك دائما على خلاف ما تهواه نفسك!

كذلك النوم؛ فإن النفس تميل إلى اتصال ساعات راحتها ونومها، ويزعجها التقطع فيه، فجاء قيام داود -عليه وعلى نبينا السلام- ليفسد عليها ذلك فينام ويستيقظ مرتين

مرتين في الليلة الواحدة، ينام أولا ثم يصحو للقيام ثم ينام ثانيا ثم يستيقظ ثانيا لصلاة الصبح!

فأنت ترى مخالفة النفس وعصيان هواها واضحا بيِّنًا في هذا المثال!

أعود فأقول:

أول درجة في سلم العبودية الحقة لله -تبارك وتعالى- الامتثال فيما افترضه المولى -عز وجل- عليك، وتقديم مراد الله على كل مراد، وأمره سبحانه على كل أمر!

واجعل مقام الله -سبحانه وتعالى- نصب عينيك في كل شأن من شؤون حياتك!

فأول ما يعرض عليك الأمر وتنزل بك النازلة فذكر نفسك وقل لها: الله أكبر!

الله أكبر من كل شيء، ومراده أكبر من كل مراد!

فماذا يريد الله منِّي في هذا الموضع -وإن أغضب جميع الخلق-؟!

وقد قال رسولنا -صلى الله عليه وسلم-:

«مَنِ الْتَمَسَ رِضَاءَ اللهِ بِسَخَطِ الناسِ كَفَاه اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، ومَنِ الْتَمَسَ رِضَاءَ الناسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلى النَّاسِ».

فإن وصلت إلى مراد الله تعالى منك فأقبل ولا تخف ولاتتردد، والله مولاك يتولاك برحمته!



فصل
«في العبودية في الصلوات المفروضة»

اعلم -بُنَي- أن ما افترضه ربك -عز وجل- عليك إنما هو صور من صور العبودية له سبحانه، تُقِرُّ فيها بأنك عبد مطيع مذعن لأمر سيدك!

وقل لي -بالله عليك- ماذا تزيد صلاتك للخمس المفروضة في ملك الله -تبارك وتعالى-؟!

وماذا ينقص من ملكه -سبحانه- إذا لم تؤدها؟!

أنت وصلاتك وعبادتك -بل وعبادة الخلق أجمعين- لا تزيد في ملكه سبحانه شيئا، ولا تنقص معصيتك ومعصية الخلق أجمعين من ملكه شيئا!

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾

[العنكبوت].

فإذا علمت حقيقة عبادتك وصلاتك، فاعلم أن ما تأتي

به من صلاة وعبادة إنما هو شاهدٌ تضعه بين يدي خالقك، أن قد صدَّق قلبي أن لا إلـه إلا أنت سبحانك، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم-الذي بلغنا أوامرك ونواهيك- عبدك ونبيك ورسولك، وأن جوارحي قد صدقت ما صدق به قلبي فأتتك مذعنة في الموعد الذي حددته لها، وتركت الدنيا وما فيها وأتتك ربِّ تعلن أنك أكبر من كل شيء، وأنها لا تقدم عليك وعلى ما أمرتها به أي شيء.

ولو تأملت هذا المعنى قليلًا لعلمت لم كانت الصلاة على المؤمنين كتابًا موقوتًا؟!

مثال:

أرأيت لو أن أباك قال لك: ارجع إلى البيت اليوم في الساعة الثالثة لأني نسيت المفاتيح وأول من يعود إلى البيت من إخوتك سيعود في الرابعة، فلا تتأخر، أرأيت لو أنك أتيت فعلًا لكن بعد الرابعة وبعد أن عاد أخوك فما يكون موقف أبيك منك؟

أرأيت حتى لو أنك وصلت في الرابعة إلا خمس دقائق، وجلس أبوك ينتظرك ولم تأت إلا قُبَيْل الموعد الذي يأتي فيه أخوك؟!

أترى هذا يسره؟!

أو تظن أنك أطعته وأرضيته؟!

ولله -سبحانه- المثل الأعلى: يأمرك ربك أن تأتيه خمس مرات في اليوم والليلة، لتشهد أنه الخالق سبحانه، وأنك على ما أخذ عليك وعلى بني آدم من الميثاق: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وأنك عبد له سبحانه تأتمر بأمره وتجتنب ما نهى عنه، وأن سعادتك وحياة قلبك في التزامك موعده سبحانه الذي وضعه لك.

فأنت لا تقدِّم على اللقاء به في موعد الصبح نومًا ولا راحة ولا طعامًا ولا لذة، فتقوم مستبشرًا فرحًا بلقاء ربك، فيكون اللقاء فاتحة يومك، فتتوضأ وتحسن وضوءك، ثم تقف بين يديه فأول ما تقول: (الله أكبر)،

ربِّ أنت أكبر في نفسي من راحتي ونومي!

ربِّ لقاؤك أعزُّ علي من كل شيء وأكبر في قلبي من كل شيء!

ربِّ شوقي إليك أكبر من كل شوق وأعظم من كل راحة!

ربِّ عبدك أتاك في موعده، لا يرى عمله يبلغه رضاك؛ لكنَّ رحمتك وسعت كل شيء وقيامي إليك وصف قدمي بين يديك ومناجاتي لك ما هي إلا شاهد العبودية لك، سبحانك سبحانك!

ثم تشرع في مناجاة الرب بكلامه، وطلب الهداية منه وحمده والثناء عليه، بما أسلفت لك من معان في كيفية تعاملك مع كتاب ربك وخاصة الفاتحة، وما يفتح الله عليك من معاني العبودية فيها، ثم تتأنى في قيامك وركوعك وسجودك، فإنك بين يدي ربك سبحانه، وهو ناظرك ومطلع عليك!

فإن أنت أنهيت صلاتك على الوجه اللائق، فاعلم أن أعلى ما تصل إليه من درجات الإتقان والخشوع في صلاتك لا ينفعك شيئًا عند الله، فاستغفر الله ثلاثًا خشية أن يقع في

قلبك العجب بعبادتك أو صلاتك، إنما هي محض رحمة ربك التي تنجيك، وليست صلاتك -مهما بلغت من الحسن- إلا شاهد العبودية للملك -تبارك وتعالى-، ومجاهدتك فيها إنما هي لنفسك؛ لعلها تكون شاهدَ خير لك بين يدي ربك -تبارك وتعالى-!

ثم على هذا فَقِسْ كل عبادة مفروضة أو طاعة تتقرب بها إلى الله سبحانه.

ولولا خشية أن أطيل عليك -بُنَي- فتملَّ؛ لحدثتك على هذا النحو في كل فرض قد كتبه الله عليك، أو سنة استحبها لك؛ لكني أثق في فهمك لتقيس ما لم أذكره لك على ما ذكرتُ، والله يسددك ويهديك!

عود على بدء:

اعلم -يا بني- أن ما فرض عليك ربك لا يقتصر على العبادة وحدها، بل هو داخل في جميع تفاصيل حياتك، سواء فيما يتعلق بأخلاقك وقلبك وتزكية نفسك، أو فيما يتعلق بالخلق!

فأمَرَك بالصدق والأمانة والعفاف والتواضع وخفض الجناح واللين والرحمة، كما أمرك ببر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار والرفق بإخوانك المسلمين ورحمتهم، والجهاد في سبيل الله والدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها!

وكلُّ أمرٍ من هذه الأمور يأتي في بابه إن شاء الله؛ لكني أحببت ألا أنتقل إلى باب آخر حتى يكتمل لك تصور الفروض في علاقتك بربك؛ فإن أقوامًا ممن ابتلينا بهم حصروا الدين كلَّه في تلك الفروض من صلوات وصيام وزكاة وحج؛ بل حتى تلك الفروض يعملون بجد على إفساد معنى العبودية فيها عند المسلمين، فيجعلون الصيام فرضًا للإحساس بالفقراء لا أكثر، ويجعلون الزكاة على أهوائهم، فزكاة المال يخرجونها طعامًا أو يوجهونها لغير مصارفها بدعوى فقه الواقع، ثم هم في زكاة الفطر يخرجونها مالًا!

وكأنهم أبَوْا إلا أن يقولوا بلسان حالهم: نفعل ما نراه الأصوب لا ما يفرضه الرب علينا أو يستحبه لنا!

وليس مرادي بالكلام من يتعبد لله بتقليد إمام من أئمة المسلمين، وإنما أقصد من لا يلتفت إلا لهواه!

ثم يجعل بعضهم بطون المسلمين أولى من فريضة الحج، وهو نفسه غاضٌّ الطرف عن كل مظاهر التبذير والمعاصي والتي ينفق فيها أضعاف ما ينفق المسلم في رحلة إكمال إسلامه بالحج! وإنا لله وإنا إليه راجعون!

الشاهد:

اعلم -بُنَي- أن الدين الذي ختم الله به الرسالة وارتضاه لخلقه، بل ولا يرضى لعباده غيره، والذي هو الإسلام -لاشك في ذلك-، قد أتى كاملًا شاملًا تامًّا أحاط بجميع أمور البشر، ولله في كل أمر من أمور حياتهم مقال، إما بقاعدة عامة يتفرعون منها فيبنون عليها، وإما بتفصيل دقيق يلتزمونه، فلا يخدعنَّك أحدهم فيقول لك: إن الدين أسقط أمورًا لم يتكلم عنها ولم يتدخل فيها بتاتًا؛ فإن أهل زماننا -إلا من رحم ربك- يؤتون دائما من جهلهم بدينهم وبتراث أسلافهم، لا بنقص العلوم،

ناهيك أن يكون النقص في التشريع -معاذ الله-!

أعود بك إلى الأصل فأقول:

لا يشغلنَّك عن إتيان الفرائض شيء، ولا يُلَبِّسَنَّ عليك هواك أن تقدم على الفروض شيئًا؛ فإنَّ ربك -تبارك وتعالى- لا يقبل منك السننَ حتى تأتي بالفروض، وانظر إلى حال الرجل الذي أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يسأله عما افترضه الله على عباده بعد الشهادتين من صلاة وصيام وزكاة مال وحج، فيقول: والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص؛ فيجيب -صلى الله عليه وسلم- بقوله: أفلح إن صدق!

ثم أفلح من أتى بما افترضه الله -سبحانه- عليه، وما ألزمه به، وهو إن فعل فمسلم صالح؛ لكن السؤال هل يبلغه ذلك مراتب الأولياء الذين وصفهم الرب -تبارك وتعالى- لك؟!

الإجابة في قوله تعالى فيما يرويه عنه نبيه -صلى الله عليه وسلم-: «**وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه**».

اعلم -بُنَي- أن العبد يمر بمنازل ومدارج يترقى فيها إلى

أن يصل إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله، شهادة يقين كشهادة من رأى ربَّه كفاحًا لا استدلالًا!

وأول درجات تلك الشهادة إلزام النفس بما افترضه ربها عليها؛ ثم إذا لانت وأذعنت وذُلِّلت عقباتها، زاد العبد في التقرب إلى ربه بالنوافل، فهو يتقلب بين نافلة ونافلة، فما ثبت منها حتى صار سجيته انتقل إلى غيره، فيستكثر من النوافل ما وسعه ذلك!

حتى إذا ما شغل وقته كله بالله، وشغله القرآن والذكر والعبادة والطاعة وتزكية النفس عن الدنيا والناس، فصار لا يرى إلا الله في كل حركة وسكنة، ولا يتوجه إلا لله في صغير أمره قبل كبيره، أذعنت حينها جوارحه وخضعت لربها سبحانه، فصارت لا تحسن تعصيه، بل لا تحسن أن ترى غير مراده -تبارك وتعالى-!

فالزم طريق الصالحين -بُنَي- ولا تتعجل المنازل فتهلك نفسك؛ فإنه ما تعجل أحد منزلة ليست له ولا يبلغها عمله

إلا صار أحد هالكَيْنِ:

دعِيًّا كذابًا، أو مُتَقَوِّلًا بغير علم على الرب -جل وعلا-!

أعيذك بالله أن تكون أحدهما!

فالزم حدك ولا تعد قدرك، ولا تتعجل منزلة ليست لك؛ تنج بإذن ربك!

«قاعدة»:

اعلم -بُنَي- أن الله -جل وعلا- وضع ميزانًا لكل شيء يُفْرَق به أولًا بين الحق والباطل وبين الخير والشر، ثم بين خير الخيرين، وشرِّ الشَّرَّيْنِ.

وهذا من أدقِّ أبواب الفقه، كما أنه من أوسع أبواب الزلل إن لم يكن للإنسان مقياس صحيح يقيس به الأمور.

وأول ما يجب عليك -ولدي- أن تضبطه جيدًا ولا تنساه أن ربك -سبحانه وتعالى- مقدَّمٌ على كل شيء، وأوامره مقدمة على كل أمر، ونواهيه أحق بالاجتناب من كل نهي،

ومراده -سبحانه- منك فوق كل مراد، فإن تعارض فرضه -سبحانه- مع أي فرض لغيره، ففرضه -سبحانه- مُقَدَّم؛ لذا كانت الصلاة المفروضة مقدمة على برِّ والدَيْكَ، وبرُّهما مقدَّمٌ على الصَّلَواتِ المَسْنونةِ، فالأولُ اجتمع فيه فرضان، أحدهما حق الرب -جل وعلا-، والآخر حق الوالدين، فقُدِّمَ حق الرب -عز وجل- على حق الوالدين!

وأما الثاني ففرض وسنة، فَقُدِّم بر الوالدين الفرض على السنة وإن كانت الصلاة!

كذلك الأمر في الشر فإنه يتفاوت، بين محرِّمٍ ومكروهٍ، ومحرمَّيْنِ، ومكروهَيْنِ.

فأما المحرم والمكروه فهو ظاهر التفرقة لمن يحرص على تعلم أمور دينه؛ فإذا استشكل عليه شيء منها سأل أهل العلم فدَلُّوهُ، ولا تشقُّ معرفته -إن شاء الله- على مريد الخير.

ومثاله ترك بعض سنن الوضوء أو الصلاة عامدًا ليدرك الصلاة مع ضيق الوقت.

أما ما كان بين محرم ومحرم أو مكروه ومكروه فهو الذي يحتاج لنظر؛ فأما الأول:

كامتناع الرجل المكلف القادر عن الجهاد المفروض مع القدرة خشية عقوق الوالدين اللَّذيْنِ يأمرانه بالقعود؛ فإن العقوق محرم وكذا الامتناع عن الجهاد المفروض محرم، فيقدم بذل النفس على بر الوالدين؛ لأنه حق الله تعالى في نفس عبده، وهو مقدم على حق الوالدين.

وعلى هذا فَقِسْ!

وأما التفصيل في هذا الباب -بُنَي- فإنَّ أباك لا يزال يجاهد نفسه ليتعلمه بحقه، ولا يدعي فيه أن لو أراد الإطالة لأطال؛ بل لا يزال يحبو فيه رويدًا رويدًا؛ عسى الله أن يفتح عليه فيزيده به علمًا!

والمتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور، وأعوذ بالله وأعيذك به أن نكون منهم!

نعم -بُنَي- لا يزال أبوك جاهلًا بهذا الباب، يعرف معالمه

العامة، ولَمَّا يحسن التطبيق في كلِّه أوْ جُلِّه؛ فلا تحزن -بُنَي- أن يُقال أبوك جاهل، وإن كنتُ أعلم أن كل ولد بأبيه معجب وفخور، لكن الحق أحق أن تتبعه، وأولى بك ألا تزعم لأبيك علما ليس له، خير لك من أن تزعم له العلم كله ثم ينتقص منك ومنه؛ إذ تبين جهله!

ورحم الله الإمام عليَّ بنَ المَدِينِيِّ إذ قال حين سئل عن حال أبيه في حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد أن ترقرقت عيناه بالدمع حزنًا: أبي ضعيف الحديث!

فاعلم بُنَي-علمك الله من لدنه علمًا- أنَّ جدَّك -رضي الله عنه ورحمه- أوصاني ذات يوم وصية جامعة في هذا الأمر فقال:

يابني فضيحة الدنيا مهما بلغت، أهون عليك من فضيحة الآخرة.

فلئن تفتضح في الدنيا بالجهل وقلة العلم، خير لك من التستر بالعلم في الدنيا ولبس ثوب أهله، وادِّعائه في كل موطن، ثم تفضح بين أهل الآخرة فيقال بين أهل المحشر: هذا

الذي كان يكذب على الله ورسوله في الدنيا خشية الفضيحة!

فاللَّهُمَّ إنا نعوذ بك من سوء المآل، وغلبة الجهل بحقيقة الحال!

تمنيت أن لو استطردت في هذا الباب أكثر من هذا -بُنَيَ- غير أني أخشى عليك السآمة والملل، وأخشى على نفسي أن يكون ما أزيده بعد ذلك ليس من ورائه إلا شهوة الكلام!

وبِذَا أوصيكَ -بُنَيَ- إذا وجدت في نفسك رغبة في الحديث فأمسك، وإذا وجدت في نفسك رغبة في الصمت مع علمك بأن كلامك قد ينفع الناس ووجدت من يحمل عنك ما تقول، فتكلم ولا تقل إلا بحق وعلم!

وتذكر قبل كل شيء:

الله -سبحانه وتعالى- ربك وسيدك ومولاك يراك ويسمعك ويطلع على قلبك، وهو -سبحانه- الذي يعلم السر وأخفى، فاتقِ الله -حفظ الله قلبك-!

والحمد لله رب العالمين.



فصل
«في علاقة العبد بسيِّدِ الخَلْقِ -صلى الله عليه وسلم-»

اعلم -بُنَيَ- أنِّي خصصت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بذكره في باب علاقة العبد بربه -سبحانه وتعالى-، لا من باب التسوية، معاذ الله أن نشرك به أحدًا من خلقه، وإن كان سيد الخلق -صلوات الله وتسليماته عليه-، وإنما خصصته بذلك؛ لأنه المبلِّغ عن ربه -سبحانه وتعالى-، وهو -صلى الله عليه وسلم- الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحىٰ، فالكلام عن سيد الخلق -صلى الله عليه وسلم- في هذا الباب إنما هو لقرب نسبته إلى الرب -تبارك وتعالى-، فهو أحب الخلق إلى الرب -عز وجل-، وخاتم رسله وأنبيائه، وهو هادينا إلى طريق الملك -جل وعلا-، وكل خير علمناه، وكل معرفة بالله سبحانه عرفناها؛ فمن طريقه -بأبي هو وأمي-!

ثم اعلم أني ما جعلت ذكر المصطفى -صلى الله عليه وسلم- في باب علاقة العبد بالخلق، وإن جعلت ذكر بقية

إخوانه من الأنبياء والمرسلين -صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين-، في هذا الباب؛ بيانًا لعظم شأن المصطفى -صلى الله عليه وسلم- في قلوب المؤمنين، وإنزالًا له منزلته التي تجب علينا معاشر المسلمين الموحدين، مع التأكيد على أنَّا لا نرفعه -صلى الله عليه وسلم- عن بشريَّتِهِ، كما يفعل بعض الغلاة العاصين لسيد ولد آدم -صلى الله عليه وسلم- الذي قال بنفسه: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله**»

وكذا قال حين مدحه قوم فقالوا: «يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا»، فقال -صلى الله عليه وسلم-:

«**يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل**»

وكذا لا نفعل فعل الجفاة الغلاظ القلوب الذين لا يتركون موطنًا يمدح فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

إلا ورفعوا رايات التحذير من الشرك، ووجوب التوقف عن المدح، وعن الحديث عنه -صلى الله عليه وسلم- بمثل هذا خشية أن يغالي الناس فيه كما غالت النصارى في المسيح -عليه وعلى نبينا السلام- فجعلوه إلـٰها أو ابن إلـٰه -تعالى الله عما يقولون علوا كبيرًا-.

والحقُّ الذي لا محيص عنه -بُنَي- أن تتوسط في أمرك، وترد الأمر كله لصاحب الأمر والخلق، الذي يصطفي من رسله من يشاء ومن الناس، فتتوقف عند حدوده، وتحب ما يحب، وتبغض ما يبغض، وتُقَدِّم من يقدم، وتؤخر من يؤخر، وتترك اختيارك وتتمسك باختياره لك، فهو أعلم بما يصلحك!

فرب العالمين -تبارك وتعالى- خلق الخلق، واصطفى منهم الرسل والأنبياء، ثم فَضَّل الرسل على الأنبياء، ثم فضل بعض الرسل على بعض، ثم اختص أولو العزم منهم، ثم اختار لنفسه من أولي العزم خليلين إبراهيم -عليه السلام-، ونبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-، ثم اصطفى نبينا محمدًا -صلى الله عليه وسلم- على سائر خلقه وختم به الرسالات، وانقطع وحي

السماء عن الأرض بعد لحوقه بالرفيق الأعلى!

وهٰأنا سائلك -بُنَي-:

هل أشركك الله في الخلق حين أراد أن يخلق خلقه؟!

هل أشركك في تدبير أرزاقهم؟

هل استعان بك في اختيار رسل خلقه وأنبيائهم؟

هل كنت شريكًا في كتابة كتبه التي أرسلها لخلقه؟! -تعالى الله الملك الحق الواحد الأحد الصمد عن هذا كله علوًا كبيرًا-!

فلِمَ تنس نفسك وتظن أن لك حقًّا في تقديمِ نبيٍّ على نبي، أو رسول على رسول، أو تفضيلِ واحدٍ على آخر، فضلًا عن أن تصف أحدهم بما لم يصفه به ربه، ولا حدَّثَ به النبي عن نفسه فترفعه بحديثك عن قدره الذي ارتضاه الملك له، أو تحط من منزلته عن المنزلة التي وضعه الله فيها بدعوى خشية الشرك وسد الذرائع؟!

أيها المغالي:

هب أن الله -سبحانه وتعالى- ختم رسالاته بعيسى أو موسى أو إبراهيم أو نوح -عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام- ولم يخلق سيدنا محمدًا -صلى الله عليه وسلم- فماذا كنت تفعل حينها؟

أراك كنت تغالي كذلك فيمن ختم به، وليس هذا فهمًا منك بحقيقة مقام المرسلين، بل هو مرض قلبك الذي يطلب محسوسًا ملموسًا، وإن مرَّ على زمانه دهرٌ فتتوجه له بالعبادة، كأولـئك الذين قالوا: ﴿يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف].

فهـؤلاء قوم أشربت قلوبهم المادة حتى أبَتْ إلا أن تتوجه بالعبادة لمحسوس ملموس تدركه أبصارهم أو من أبصروه بأبصارهم!

وهنا يختل ركن من أركان الإيمان عظيم، وهو الإيمان بالغيب؛ فتجد كل غيب على قلب هٰؤلاء ثقيل، حتى إنك لترى ذكر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على ألسنة بعضهم بالمغالاة والمدح المذموم أكثر من ذكر الله -تبارك وتعالى- على ألسنتهم، بل ربما لا يذكرون الله عز وجل إلا قليلا!

ولا يغرنك -بُنَي- أحدهم إن قال لك: من ذاق عرف، ونحوها من كلمات يتفلت بها كل متفلت متبع لهواه، فإنا لا ننزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلك المنزلة إلا لِمَحضِ اصطفاء الله تعالى له، وكفى بعبد أن يصطفيَه الخالق!

وافهم -بُنَي- هذا جيدًا وكَرِّرْه على قلبك ومَرِّرْه:

«**لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك**».

فقال عمر -رضي الله عنه-: فإنه الآن، والله لأنت أحب إلي من نفسي!

فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**الآن يا عمر!**»

أتدري -بُنَي- كيف كان عمر -رضي الله عنه- يحب رسول الله

-صلى الله عليه وسلم- أكثر من كل شيء إلا نفسه؟

ثم إذا ما نبهه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن الإيمان لا يكمل حتى يكون أحب إليه من نفسه، انتبه فقال مباشرة: فإنه الآن!

كأني أرى تلك اللَّبِنَةَ التي يتم بها صَرْحُ إيمانِ سيدنا عمر -رضي الله عنه- والذي حمل غيابها سيدنا عمر على أن يستثني نفسه أولًا، ثم أراها توضع مكانها بما أُلْهِمَه ببركة النبي -صلى الله عليه وسلم- حين أجابه!

كأني أرى ما يعتمل في صدر سيدنا عمر -رضي الله عنه- حين أعاد عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر نفس عمر بقوله:

«حتى أكون أحب إليك من **نفسك**»

نفسك التي كادت توردك المهالك يا عمر يوم كنت تعبد الأصنام وتعادي دعوة الله تعالى والمسلمين!

نفسك التي كادت تقذف بك في جهنم خالدًا مخلدًا فيها

كما خلدت الكفار من قومك ممن كنت سيدًا بينهم في ناديهم!

نفسك التي كادت تهلكك لولا أن منَّ الله عليك وعلى الناس، فهداكم بي، وأنقذكم بي من النار، وجعلني دليلكم إلى رضاه، وأوحى لي بكتابه الذي فيه عصمة أمركم وحكم ما بينكم، ونجاتكم ونجاة أبنائكم وأهليكم، وجعلني قائدكم وشفيعكم، ومرشدكم إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين آمنوا بالله ورسوله واتبعوا النور الذي أُنزل معه، أولـئك هم المفلحون!

فكيف لا يجيب سيدنا عمر -رضي الله عنه- بما أجاب به على الفور: فإنه الآن؟!

ولا تظنن -بني- أن سيدنا عمر -رضي الله عنه- قال: «فإنه الآن»؛ مجاملة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو نفاقًا، حاشاه!

فإنه لو أراد لقالها من أول الأمر، ولما احتاج أن يستثني نفسه، بل هو الصدق في أول أمره حين استثنى نفسه، وهو

نفسه الصدق لما انتبه للأسباب التي تُلزِمُه أن يكون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحب إليه من نفسه.

ثم اعلم -بني-:

أنه لو أُغلق دونك بابُ ما أرسل به سيد الخلق -صلى الله عليه وسلم- فليس ثَمَّ باب تلج به إلى الله -تبارك وتعالى-، فإياك أن تغلقه بيدك، وتتنكر لكتاب ربك وسنة نبيك -صلى الله عليه وسلم-!

واحذر -بُنَي- قطاع الطرق الذين يدعون أنهم ورثة الهدي المحمدي، ويوسوسون لك أن الطريق لا يُسلك إلا بالاقتداء بوريث، وأنه دليلك إلى ربك -تبارك وتعالى- وإلى الولاية وسلوك طريق نبيه -صلى الله عليه وسلم-؛ فإن سيدك وسيد أبيك صاحب نبينا -صلى الله عليه وسلم- معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قال لتلميذه الذي بكى على العلم الذي كان يستفيده من سيدنا معاذ وقد حضرته الوفاة: «**يا بني، العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما**».

فإياك -بُنَي- أن تخالف نصيحة الصحابي الفقيه، لقول دعيّ كذاب، والزم كتاب ربك وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- تجد فيهما النجاة، والحمد لله!

أختم هذا الفصل -بُنَي- بتذكيرك بأن كل خير نحن فيه، أو لما نبلغه مع علمنا بوجوده، فهو من فضله -تبارك وتعالى- علينا أن بعث فينا رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فعلَّمه ربه -تبارك وتعالى- فعلمنا، وأوحى إليه الملك -سبحانه- فبلغنا وأحسن البلاغ وأتمه، ثم بيَّنَ لنا بقوله وعمله وسمته وحاله ما فهمنا به عن الله -تبارك وتعالى- مراده وأمره ونهيه، ومراضيه ومساخطه، ثم لحق بالرفيق الأعلى وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة، وكشف الله عز وجل به الغمة، فتركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها من بعده إلا هالك!

فجزاه الله عنا خيرا، وجمعنا بسيدنا وحبيبنا ونبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- في مستقر رحمته، وكتب لنا شفاعته، وشربة من حوضه -صلى الله عليه وسلم- لا نظمأ بعدها أبدًا، اللَّهُمَّ آمين.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين.



الباب الثاني
باب العبودية في تزكية قلبك وتهذيب نفسك وإصلاحها وتولي قِيَادَهَا

أي بني، هذا أوجب الواجبات عليك بعد أن تصلح ما بينك وبين ربك!

هذا هو الباب الواسع الذي يموت جُل بني آدم ولا يزال النقص فيهم بسببه!

هذا هو الباب الذي إن مُتَّ وأنت تجتهد وإن لم تبلغ الكمال فيه مِتَّ على خير حال بإذن الله!

هذا هو الباب الذي قيل فيه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء].

أي بني، اعلم أن أحدًا من الناس لا ينفعك إذا لقيت ربك وقلبك مكدر بالشبهات والأمراض، وكل إنسان تتحجج به يومها أن قد كان سببًا في ظلمة القلب وفساده

فلن تقوم به الحجة حينها بين يدي الرب الذي يعلم السر وأخفى -سبحانه-!

فاجتهد في هذا الباب ما وسعك؛ لعلك تلقى الله سبحانه سليم القلب مطمئن الفؤاد صالح البال، بتوفيق الملك المتعال -سبحانه-!

وأول ما يتوجب عليك معرفته -بُنَي- أنك كلما ازددت معرفة بنفسك؛ كلما زادت معرفتك بربك، فبضدها تتميز الأشياء!

فإنك حين توقن أنك مخلوق عاجز، علمت يقينًا أن هناك رب قادر!

وكلما نظرت في نقصك رأيت كماله -جل وعلا-!

وكلما وقفت على مرض من أمراض قلبك، أحسست بكمال الرب -تبارك وتعالى-!

وكلما عالجت شيئًا مما يفسد عليك قلبك كالكبر مع

نقصك وعجزك، رأيت صاحب الكبرياء والعظمة باستحقاق كل كبرياء وعظمة وحده -سبحانه-!

فكلما زادت معرفتك بنفسك -بُنَيَ- واجتهدت في تزكيتها والوقوف على أمراضها وتلمُّس سبلَ علاجها، كلما عرَّفك ذلك بالملك -سبحانه- وبأسمائه الحسنى وصفاته العلى -تبارك وتعالى-!

وأدلف بك -بُنَيَ- إلى ذلك الباب الواسع بما يفتح الله به من سبل العمل الذي تنقي به قلبك وتزيل شوائبه؛ عساك تأتي ربك بقلب سليم!

حدثني جدُّك -رحمه الله ورضي عنه- مرارًا قائلًا:

أوسع أبواب الوصول إلى الله وأقلها روادًا: باب الذل!

اعلم -بُنَيَ- أن الله سبحانه غفر لأبيك آدم -عليه السلام- ما كان منه بالذُّلِّ والافتقار، وأخرج إبليس من الجنة ولعنه بذنب واحد: وهو الكبر -نقيض الذل-.

وقال الملك -سبحانه- فيما يرويه عنه نبيُّه -صلى الله عليه وسلم- : «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحدًا منهما قذفته في النار**».

إذا علمت هذا -بُنَي- فاعلم أن أصل كل شر مما يلحق ابن آدم، إنما مرده إلى الكبر.

وأول الكبر وأصعبه وأدقه أن ترى نفسك!

فإن رؤيةَ النفسِ مهلكةٌ لا ينجو منها إلا من عصم الله!

ولو تأملت ما ذكرته لك قبلُ: كان الله ولم يكن شيء غيره، حُلَّت لك كثير من العقبات التي تعترض القلب بين الحين والآخر!

فمن بلغ به العلم أن يذعن لقول الله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾**﴾ [الإنسان]، ويوقن أنه لم يكن شيئا مذكورًا، علم أنه ما كان لمن هذا حاله أن يرى نفسه فضلًا عن التكبر!

ولو نظرت في أحوال الناس علمت أن الكبر لا يُفَرق بين صغير وكبير، عالم وجاهل، بل هو إلى الجاهل أقرب منه للعالم!

فإنَّ الجاهلَ يأبى أن يتعلم ممن يُسْديه النصيحة، لا يمنعه من قبولها إلا الكبر!

ثم يقوده الكبر إلى تخطئة العالم ظنًّا منه أنه ينتصر لنفسه!

حتى إذا استهوته الشياطين وجرى مع ما يوسوسون له به أوقعوه في كبيرة التقول على الله بغير علم؛ وهذا أقبح الجهل والكبر معًا!

لذا قال -تعالى-: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل].

وقال -جل ذكره-: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

وقال صلى الله عليه وسلم:

«من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار».

فإن ابن آدم يموت يوم يموت وهو جاهل ولا بد بأبواب من العلوم كثيرة، وخلق يوم خلق وهو الجهل نفسه، ولولا فطرت الله التي فطر الناس عليها من الإسلام في نفس كل مولود؛ حتى يضلَّه أبواه فيُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه؛ لقلنا أنه يخلق بلا علم مطلقا!

فإن من عظيم لطف الخالق -تبارك وتعالى- تلك الفطرة التي يؤوب بها كل عاصٍ أوضالٍّ أو فاسقٍ أو فاجرٍ أو كافرٍ؛ إلا من منعه الكبر عن الرجوع!

فإن قلنا أن أول أمر ذلك العبد كان الجهل؛ فإنه إما يُوَفَّق لحقيقة أمره من أوله فيعلم أن الجهل لا يزال ملازمًا له ما حَيِيَ، ومهما تعلم فسيظل جاهلًا بأبواب من العلم كثيرة، هدأت نفسه وركنت إلى ركن العليم القدير.

وتعلَّمَتْ قولَ: لا أدري، وقتلت الكبر فيها، فاطمأنت وسكنت!

وإما أن لا يُوَفَّق لحقيقة أمره من أوله، فيظل يكابر نفسه

حتى لا يعترف بالجهل والعجز، ويظن بنفسه ظن السوء أن عقله يرشده ويهديه، وأنه يستطيع أن يصل بعقله المحدود إلى أقصى حدود المعرفة؛ فإذا به يتفلَّتُ من الاعتراف بالجهل، ويأبى أن يعترف لأحد بعلم، ويرى في نفسه العالِمِية لا لغيره، إلا أن يمدحه أحدهم بالعلم فيبادله مدحًا بمدح مجاملة، لا اعترافًا بعلم المادح؛ فإنه لا ينطلق إلا من منطلق رؤية النفس وتعظيمها وعُلوِّها على سائر الخلق، ولا يزال على هذه الحال البائسة يتنقل بين دركات الكبر ورؤية نفسه حتى يحادد الله -سبحانه-، ويخرج من ربقة العبودية لله -سبحانه-، ويرى أنه لا يلزمه من تلك العبودية للخالق شيء، حتى إذا بلغ جنون العظمة كفر بالله العظيم وربما أنكر وجوده وألحد ثم توجه بالعبادة لنفسه؛ فإنه يراها في ذلك الحين أولى بالعبادة من غيرها، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

وتأمل بُنَي -عصمك الله من كل كبر- كيف تنَقَّل ابن آدم بين هذه الدركات ولم يشعر بها!

بل ربما لم يشعر بها من حوله إلا المتأمل بعد انقضاء تلك المراحل واستقراره على حال الكفر في آخر أمره، وسبب هذا من أوله -بُنَي- مخالفة قول الملك -جل وعلا-:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور].

أول مزالق الكفر تبدأ بخطوة واحدة من خطوات الشيطان؛ ثم تتبعها خطوة فأخرى ثم يصير مشيًا، ثم هرولة ثم ركضًا، وهكذا حتى يهلك العبد إن لم يتداركه ربُّه برحمته!

فإن أنت تَبِعْتَ شيطانك -بُنَي- في خطوة فتدارك نفسك سريعًا، وتب واستغفر وارجع؛ فإن الله يتوب عليك ويُخسِئ شيطانك ويرده عنك!

وإياك والتمادي معه أو تهوين خطوته في عينك فإنها أُسُّ كل بلية ومصيبة في الدين!

۞ **قاعدة هامة في طريق التزكية:**

يقول ربنا -تبارك وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة].

أستحلفك الله الذي خلقك -بُنَي- أن تجتهد ما وسعك الاجتهاد أن تكون من أهل هذه الآية!

واعلم أن الصدق طريق النجاة في سيرك إلى الله -سبحانه-، ولا نعلم أحدًا من الكاذبين بلغ شيئًا ذا بالٍ في أي باب من أبواب الخير وهو يلازم تلك الصفة الذميمة!

وقد قيل لرسولِ الله -صَلى الله عليه وسلم-: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: «لَا».

وأوَّلُ الصدق -ولدي- أن تصدق ربك الذي خلقك، وإياك وخيانة الذي يعلم السر وأخفى، والذي هو أقرب إليك من حبل الوريد، ويعلم ما لا تعلمه من نفسك!

ثم إياك -بُنَي- أن تكذب على نفسك حتى لو استطعت أن تكذب على الخلق جميعًا فيصدقونك!

هَبْ أنك كذبت على الناس أجمعين فصدقوك، فماذا تقول بين يدي الله تعالى الذي لا ينفع بين يديه إلا الصدق؟!

إذا علمت هذا -بُنَي- فاعلم أن ضلالَ جُلِّ بني آدم أتى من الكذب على النفس، وأعظمهم كذبًا أولـئك الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا ثم أتوا بين يديه مقسمين به سبحانه:

﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

فيصف اللهُ -تعالى- مَكْمَنَ الخللِ بأدق عبارة وأَخْصَرِها:

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾.

تخيل -بُنَي- أناسًا عاشوا يشركون بالله آلهة أخرى أو يطلبون حاجاتهم من غير الله -تعالى- صنمًا كان، أو نبيًّا أو صالحًا أو وليًّا بعد موتهم، ثم يكذبون على أنفسهم وعلى الناس فيقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

ولا يكتفون بذلك بل ينطبق عليهم وصف أجدادنا إذ يقولون: كذب حتى صدَّق كذبته.

ثم يقفون بين يدي الجبار -سبحانه- يقسمون به وبعزته

وجبروته وملكوته وقدرته وعلمه بل ويؤكدون القسم بمثله:
﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾.

يا لخداع نفس ابن آدم؟!

تتَّبِعُ هواها وتسير خلف شهواتها فتركب طريق الذنوب، ثم لا تكتفي بوقاحتها التي حملتها على المجاهرة بذلك كله، فتُتْبِعُه بطلب الجنة مِمَّنْ أشركوا به وخالفوا أمره وأمرَ نبيِّهِ والنورَ الذي أنزله مع نبيه -صلى الله عليه وسلم-، بل ويجادلون في ذلك بين يديه!

ما أَحْلَمَكَ ربي، وما أعظمك!

الذي أردت -بُنَيَ- أن أُقَعِّدَه لك في هذا الفصل وأدُلَّك عليه وأحثك على التشبث به أن كُنْ من الصادقين.

وإيَّاك أن تُسَمِّيَ الأشياء بغير اسمها الذي سماها الله به.

فالمنكر منكرٌ وإن ارتضاه الخلق أجمعون، والمعروف معروف وإن هجروه أجمعون!

فإن سيدنا -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن أقوام يسمون الخمر بغير اسمها فيستحلونها، فإذا تأملت -بُنَيِ- في حال هٰؤلاء ستجد أنهم خَطَوْا خطوةً من خطوات الشيطان التي حذرتك منها قبلُ، وهي من أخبث خطواته -لعنه الله-، وهي أن يكذب المرء على نفسه فيغير اسم المنكر لاسم آخر ليس له الوقع الشديد الذي للاسم الذي سماه الله -تعالى- به!

وقد رأينا أقوامًا في زماننا سَمَّوُا الخمرَ ومذهباتِ العقلِ عمومًا بأسماء أخرى ليَخِفَّ وقعُها على نفوسهم، فكذبوا على أنفسهم أولًا، حتى إذا هانت تلك الكبيرة في أعينهم جعلوا يجادلون عنها ويظهرون الفوارق بينها وبين الخمر، فكُسَيْرٌ يقول هذا دخان وهذا سائل، وعُوَيْرٌ يقول هذه تذهب العقل من شربة والأخرى مع الإكثار منها، ثم يأتي ثالث ما فيه خير فيخبرك أن الخمر إدمان وأما الدخان المذهب العقل فليس إدمانًا ولو أراد لتركه في أي وقت!

فانظر -بُنَيِ- بغض النظر عن تهافت تلك الحجج والتي

يرد جميعها قول سيدنا -صلى الله عليه وسلم-: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**».

أقول: انظر -بُنَيَ- إلى تلك الخطوة التي ظاهرها الصِّغَرُ في أولها وهو تغيير اسم باسم، إلى أي مدى تنتهي وكيف تبلغ بصاحبها حدًّا قد يستحل به المحرَّمَ المُجْمَعَ على تحريمه؟!

ثم اعلم أنك تستطيع غلق الباب كله -أي باب خطوات الشيطان- بالصدق مع الله تعالى أولًا، ثم بالصدق مع نفسك، وبالتالي لا يبقى لك إلا الصدق مع الناس، ولا إخاله يصعب عليك حينها -بإذن الله تعالى-.

وأختم هذا الفصلَ بتذكيرك بقول سيدنا كعب بن مالك -رضي الله عنه- وهو أحد الثلاثة الذين خُلِّفُوا ونزل فيهم القرآن يُخْبِرُ بتوبة الله عليهم بعد بلاء شديد وامتحان عظيم من الله لهم، وذلك حين أراد سيدنا كعبٌ أن يذهب لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد رجوعه من الغزوة فيقدم عذرًا بين يديه كما فعل غيره؛ لكنه لما جلس بين يدي النبي

-صلى الله عليه وسلم- آثر أن يكون مع الصادقين، فلما سأله النبي -صلى الله عليه وسلم-: **فما خلَّفَك؟**

قال -رضي الله عنه-: والله لو بين يدي أحد غيرك جلست، لخرجت من سخطه عليّ بعذر، لقد أوتيت جدلًا، ولكن قد علمت يا نبي الله أني أخبرك اليوم بقول تجد علي فيه وهو حق؛ فإني أرجو فيه عقبى الله. اهـ

فإن ابتليت -بُني- بأن تؤتى جدلًا فإياك أن تستخدمه إلا في صدق وحق، وكن كما كان سيدك كعب رضي الله عنه؛ وقل: أرجو فيه عقبى الله!

والحمد لله رب العالمين.

أعود -بُنَي- فأقول:

إذا أردت أن تُزَكِّي نفسك فاعلم أن أول ما ينبغي عليك أن تتخلص من خصلتين فيهما هلاك المرء إن لازمهما، وإن تاب الله عليه منهما كان ما بعدهما أيسر بإذن الله، وهما: الكبر، والكذب.

فإن الكبر يحول بينك وبين كل خيْر!

والكذب يقودك إلى كل سوء وشر!

وقد كان جدك -رحمه الله- يقول لي معلِّمًا ممازحًا:

ثمان سنوات (يا واد) يا شيخ عمر كي أخرج الكبر من قلبي!

ولقد رأيته بعيني وهو يتودد أيامًا طويلة لعامل نظافة -جَمَّله الله بالتقوى- كان يدخل المسجد فجرًا للصلاة، وملابسه قد خرج منها رائحة اجتهاده في عمله غير أن الناس كانوا يجتنبونه تمامًا، فيُصَلُّون وبينهم وبينه فرجة كبيرة، فكان جدك إذا رآه تعمَّد الوقوف إلى جانبه، فألصقَ كتفه بكتفه ورجله برجله، وصلَّى إلى جواره، ثم إذا انتهت الصلاة سلم عليه واطمأن على حاله ومشى، وكنت أعجب من ذلك، حتى إذا انقضت أيام على هذه الحال، أخذ جدك -رحمه الله- من ثيابه ثوبًا حسنًا، وبعد أن انقضت الصلاة جلس إلى الرجل الطيِّب ومازحه وطيب خاطره ثم أهداه الثياب، فكان إذا

دخل الرجل بعدها المسجد اغتسل ولبسها، ثم صلى وريحه طيبة ومظهره حسنًا، ثم خلعها بعد الصلاة وأكمل عمله!

وكنت سألته -رحمه الله ورضي عنه- حين تعجبت من فعله فقال -رضي الله عنه ورحمه-: أردت أن أهديه هدية يأتي بها لصلاة الصبح حتى لا يؤذي أحدًا، وأعلم أنه لو كان له طاقة أن يشتري ثوبًا لفعل، ولا أريد أن أجرح مشاعره بأن آتيه بها من أول معرفتي به فيظن أنها صدقة، أو أني متأذٍّ كذلك منه. رحمه الله وطيب ثراه.

اصدق أولًا مع نفسك وواجهها بعيوبها وأمراضها وفتش في قلبك عن أمراضه، وإياك وإنكار ما لاحت لك علاماته وإن قلَّت.

ولئن كان أطباء الأبدان يجعلون أعراض الأمراض احتمالًا حتى يثبت، فإن أطباء القلوب يجعلونه دليلًا حتى يُنْفى!

والأَوْلَى بالعبد أن يتهم نفسه بالتقصير، فهو خير له من تبرئتها، ثم يفاجأ بالمرض بعد مدة قد استفحل وعظم خطره،

ولا يدري من أين يبدأ علاجه وكيف يستأصله!

ثم اعلم -بُنَيَ- أن الأخلاق الذميمة كالفويسقة -الفأرة-؛ فإنها إذا دخلت البيت اختبأت حتى لا يراها أحد، ثم إذا بها تأكل وتتلذذ وهي كذلك تفسد على أهل البيت طعامهم ومعيشتهم؛ فأول ما يظهر من أمرها علاماتها وأعراضها.

فإذا تجاهلها أهل البيت وتركوها تمرح، جمعت إخوتها فأقاموا بالبيت مع أهله، فاجتمعت الفويسقات فيه حتى صاروا كأهله.

وإن انتبه لها أهل البيت وبدؤوا في التعامل معها ومحاولة الإيقاع بها واستئصالها أو طردها زادت في الاختباء!

فإن تمكنوا منها فقتلوها فأولـئك السعداء حقًّا!

وإن لم يقدروا إلا على إخراجها من المنزل، عادت فاختبأت قريبًا من الباب مُدَّةً؛ حتى إذا سنحت لها فرصة أخرى دخلت ثانية، وهي إذا دخلت الثانية كان الوصول إليها أعسر ألف مرة من الأولى؛ لأنها قد علمت هذه المرة ما كانت

تجهله سابقًا مِنْ حِيَلِ أهل البيت لإخراجها؛ بل عَلِمَتْ ما هو أهم من ذلك، وهو مداخل البيت ومخارجه ومخابئه فهي اليوم أعلم منها بالأمس!

وكذلك الأخلاق الذميمة -بُنَي- فإنَّ خُلقًا واحدًا منها كفيل بأن يفسد عليك قلبك، فإن تجاهلته أتى بإخوته من الأخلاق الذميمة، فالكبر يجلب معه سوء الطوية وبذاءة اللسان وغلظ الطَّبع والصوت العالي وغيرها من سيء الأخلاق.

أما إذا تنبهت له من أوَّلِه فحاصَرْتَه وعملتَ على قتله من قلبك فتمكنت منه سلم لك قلبك، وانتقلت إلى غيره لتبحث عن طهارة القلب وسلامته، حتى تخلي قلبك من كل سوء.

فإن لم تستطع قتله تمامًا وأخرجته قدر وسعك في كل موقف مر عليك فلا تزال على تنبُّهِك خشيةَ أن يباغِتَك في موقفٍ كثيرة تفاصيلُه، عظيمة معطياتُه، فلا تنتبه إلا وقد دخل قلبك ثانية، وظهر عليك خَفِيُّ أعراض الكبر، غير أنها

صارت أدقَّ من أن تلتفت لها تلك المرة أو ينبهك عليها أحد!

فاللهَ اللهَ في قلبك -بني-!

اللهَ اللهَ في مراقبتك لله في نفسك!



فصل في قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما العلم بالتعلم وإنما الحِلْم بالتَّحَلُّم»

اعلم -بُنَي- أن كلمات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلك عليها مدار الباب كله، وهي من جوامعِ كَلِمِهِ -صلى الله عليه وسلم-، وقد ورد عنه -صلى الله عليه وسلم- أيضًا قوله: «**ومن يتصبر يصبره الله**».

فإن التزكية -ولدي- لا تتأتى بالقراءة في كتبها فَحَسْبُ، ولا سماع الشيوخ بل ولا ملازمتهم إلا أن تُلحَقَ بمكابدتها والاجتهاد في تطبيقها، والعمل بما تقرأ وتسمع!

وخذ -يا قرة عين أبيك- نصيحة، أرجو أن تعمل بها؛ فإني إن كنت نصحت لك أن تعمل بكل آية من كتاب الله على نهج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما علَّمَه أصحابَه، وكذا في سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ فإنَّ كتب العلماء مهما علا شأنهم وبَعُدَ صيتُهم وعمَّ نفعهم

لا تقارن بكلام الله -سبحانه- ولا بسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم-، فالاستكثار من كتب أهل العلم خاصة في باب التزكية والرقائق وأعمال القلوب خطرُهُ عظيمٌ إن لم يَعْمَلْ قارئُها بما فيها، ويجتهد في تطبيق الصحيح منها، وما سُدِّدَ فيه كاتبه، واجتناب ما زَلَّ فيه أو خالف به نهج رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وقد يُفهم هذا الكلام على غير وجهه، فأزيده لك وضوحًا:

اعلم -بُنَي- أن العلم بلا عمل يزيد من قدرة اللسان على الكلام، ويعطِّلُ قدرة القلب، وتبعًا له الجوارح عن العمل، وكلما زاد اللسان قدرةً وتعطل القلب عن العمل، ابتعد العبد عن مراد الله -تعالى- من إرسال رسله وإنزال كتبه، حتى يصير إلى صورة ممسوخة لإنسان: عليمِ اللسان أغلف القلب، فربما يُؤَثِّرُ ولا يتأثَّر، ويَعِظُ ولا يَتَّعِظ، ويَنْصَح ولا يُنصح، فيصير جسرًا يمر الناس عليه إلى الجنة ثم يلقى به في جهنم!

فأي خسران أعظم من هذا!

وما يعظِّمُ شأنَ هذا الباب خاصة أنَّ الأصل فيه توفيق الملك -سبحانه- لعبده أنْ توافقَ نصيحتُه حالَ المنتَصَحِ بها، فإن قلوب الناس أشد تعقيدًا من أن يُجْرَى لجميعهم علاجٌ واحدٌ، أو يُنصحوا بنصيحةٍ واحدةٍ، وليست مطابقةُ الدواءِ علاجَ مرضِ المبتلى دائمًا إلا لنبي يوحى إليه، وغالبًا إلا لذي فراسةٍ يرى بنور الله وتوفيقه، وأحيانا إلا لمُدَّعٍ أراد ربه أن يهلكه فغرَّه بالموافقة، كالشياطين يسترقون السمع من أهل السماء، فيُلقون الحق الذي معهم إلى أوليائهم ويزيدون عليه مائة كذبة، وكذلك المدعي!

ولتعلمَ المدعي -بُنَي- خاصةً في زماننا الذي كثر فيه الأدعياء، فانظر إلى حاله وعمله وعبادته ومعاملاته، وتأمَّل سمتَه ودلَّه ورُدودَ أفعاله المفاجئة تجاه المواقف، وكذلك فلتات لسانه وحاله في مجالسه الخاصة والعامة، وتطابق أقواله مع أفعاله، وعمله بما ينصح به ويقوله؛ فإن طابق عملُه علمَه، وكان أقربَ إلى حال أهل الله وسمتهم وكلامهم، وكانت مجالسة الصالحين والمساكين وطلبة العلم أحبَّ إليه من مجالسة ذوي الوجاهة

والمال والسلطان، وكان قائمًا بالنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقول الحق ولو على النفس والوالدين والأقربين، فنِعْمَ هو، واشدد عليه يدك، وصاحبه ما أذن لك!

ثم احذر -بُنَي- من بعض المُدَّعين في زماننا مِمَّنْ يزعمون أنهم يدلون الناس على طريق الله، وهم في حقيقة الأمر يدلون الناس على أنفسهم ويعبدونهم لهم، وهم أكثر طُرُقِيَّةِ زماننا؛ فإنهم يخرجون بأقوال بعض أهل السلوك والتي يزعمون فيها وجوبَ ملازمة الشيخِ الواحدِ، وخدمته ليصيبَك من نفحاته، ويصب عليك من عطاياه وكراماته!

ويكفيك دليلًا على بطلان ذلك الزعم أن سيدنا وسيد الخلق -صلى الله عليه وسلم- دلَّ صاحبَه حسانَ بنَ ثابتٍ -رضي الله عنه- على الصِّدِّيق -رضي الله عنه- ليُعلِّمَه أنسابَ قريشٍ حتى لا يخطئ في حق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا هجا كفار قريش من حيث لا يدري، ودلَّ أصحابَه على أربعة من القراء من تلاميذه ليقرؤوا عليهم القرآن ويأخذوه عنهم، والأمثلة على هذا تطول، وعلى نفس النهج كان أصحابه

رضوان الله عليهم، حتى لا يدعي مُدَّعٍ أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-في مقام تعليم وتربية فأرشد أصحابه ليدل الناس على سؤال أهل العلم؛ فهذا حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس -رضي الله عنه- يحمل علمًا جمًّا عن أسيادنا عليٍّ وأُبيٍّ ويقرأ عليهما القرآن وعلى زيدٍ -رضي الله عنهم أجمعين-، وما منعه واحد منهم عن الآخر، ولا حجبه عن نفسه إذ عَلِمَ قراءته وتعلمَه على أخيه، بل كانوا يوصون ببعضهم البعض!

فإياك -بُنَي- أن تنخدع بمثل هذه الأقوال، وإن كان قائلها شيخ الإسلام في زمانه، فجَلَّ من لا يخطئ، وقد بان لك منهج سلفك الصالح -رضوان الله عليهم أجمعين-، وأنا أحدثك عن بعض من اتبعوهم بإحسان -فيما نحسبهم-، فقد حَدَّثْتُ أحد شيوخي ذات يومٍ، وهو ممن لم تفته صلاة جماعة منذ أربعين سنة أو يزيد إلا لمرض مُقْعِدٍ تمامًا، ولا أعلمه فاتَه قيام الليل في حَضَرٍ ولا سَفَرٍ، وأحسبه من أهل القرآن الخُلَّصِ، فلما تبين لي من حاله ما تبيَّنَ، وصحبته في الحضر والسفر ورأيت من بركاته، استأذنته في القراءة عليه بعض كتب السُّلوك، فأذن

على مَضَضٍ، فلما بدأنا مَرَّ مجلسان بسلامٍ، وأنا أزداد بما عنده تعلقًا، فلما أَحَسَّ الشيخُ مني ذلك أحالني على غيره، ثم إذا به يوصيه ألا يقبلني -وأنا لا أعرف حينها-!

فظَلَلْتُ أتوسَّطُ لهذا بهذا، وبهذا لهذا، ولا أصل إلى أيِّهما ولا ألقاهما، فلما بلغ مني اليأس مبلغَه أرسل لي الشيخُ لآتيه، فتنفست الصعداء، ثم جلستُ إليه فما زاد على أن قال لي:

درسك الوحيد عندي في هذا الباب:

ألا تُعلِّقَ قلبك بمخلوق قطُّ مهما فتح لك على يديه؛ فإنا ندلُّ الناس على الخالق لا المخلوقين، وندلُّهم على سلفهم الصالح وسيرهم وحالهم لا على أنفسنا، وإنما يتبلغ بنا السالك، حتى إذا وقف على رجليه طوى مرحلتنا، ولحق بالأخرى، ودعا لنا بالخير!

وأَهَمُّ ما تحفظه -بُنَي- قول سيدك معاذ -رضي الله عنه- لتلميذه: أي بُني، العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما.

أعود فأقول -بُنَيّ-:

قال -صلى الله عليه وسلم-: «**إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم**».

والتعلم والتحلم كلاهما فيه مشقة ظاهرة وتكلف واجتهاد؛ فإن الرجل يكون أسرع الناس غضبًا وأعلاهم صوتًا، ولا يزال يكابد نفسه ويراقبها ويربيها ويجتهد في تكلف الحلم والصبر حتى تصير له سجية، وحتى يكون الحلم أقرب صفاته له، وكذلك جميع الصفات و الأخلاق الحميدة، وقد كان جدك -رحمه الله- كثيرًا ما يقول لي بألفاظ مختلفة: تكلَّف الخلق الحميد حتى يصير لك عادة.

وقال -رحمه الله- كذلك يوم سألته عن التزكية وكيف يكبت المرء شهواته وملذاته:

لم يأت الإسلام لقتل شهوات الإنسان وما جَبَلَه الله عليه، ولكن جاء ليهذبها، فتكون موافقة لما أمره الله به.

فالغضب في موضعه، فإن أتى في غير موضعه صار عصبيَّةً

مذمومةً، وإن مات كُلِّيَّةً صار برودًا وموت حمية وغيرة!

وقس على ذلك كل الأخلاق والشعور الإنساني الذي يعتمل في صدرك.

فلا تقتل شهوتك ولكن هذبها!

اجعلها على مراد الله تَصْفُ لك نفسك!.اهـ.

ولو نظرت في كل خُلُقٍ تتخلق به -بُنَيَ- ثم أعملت تلك القاعدة الذهبية التي وضعها لك سيد الخلق وصاحب الخلق العظيم، والذي أدبه ربه فأحسن تأديبه -صلى الله عليه وسلم-: إنما الحلم بالتحلم ؛ علمت أن الأمر يحتاج منك إلى مراقبة شديدة، وتكرار وعدم مَلالٍ، فإنك تظل تجتهد في تزكية نفسك من خلق ذميم تعرفه من نفسك، وتخلص نفسك منه تارة بعد تارة، ثم تنزل بك النازلة فتعود إلى حيث بدأت فتمل!

وهذه آفتنا بني آدم؛ أننا ننظر إلى النتائج ونهتم لها أكثر مما نهتم بالخطوات والأسباب؛ فإذا تأخرت النتائج أو ساءت؛

مللنا وتركنا الأسباب والاجتهاد فيها، ولو لم يبقَ لنا إلَّا خطوات لندرك الفوز والنجاح!

ربُّك -سبحانه- لم يسألك عن النتائج فلا تنشغل بها، وإنما سألك عن الامتثال والأخذ بالأسباب فاجتهد فيما طالبك به، ودع عنك ما لم يطالبك به!

وسأضرب لك مثالين -بُنَي- أحدهما لخلق ذميم يجب عليك التخلص منه، والآخر لخلق كريم وجب عليك التخلق به، لتقيس عليهما ما لم أذكره؛ إلى أن يأذن الله بفتح من عنده فأستفيض في ذكر ذلك فيما أؤمله مما ذكرت لك قبلُ، والله وحده الهادي إلى صراطه المستقيم!



الكِبْر

اعلم -بُنَي- أن الكبر في النفس على دركات:

أقبحها وأكفرها: كبر النفس على الخالق.

وأدناها: كبر النفس على المتكبر.

وبينهما دركات لا تكاد النفس تخلص من دركة حتى تتخطفها أخرى، ولا تزال النفس تحاربه وتجتهد في قتله حتى تفعل أو تهلك دونه، وفي كلا الأمرين خير كبير، فلا يزال الرجل بخير ما نوى الخير، كما أوصى الإمام الجبل أحمد بن حنبل ابنه بذلك -رحمهما الله-.

وإنما الهلكة في أن تمل النفس من الاجتهاد في مدافعته فتتركه يتوغل فيها حتى يتملَّكها، وأسوأ من ذلك أن ترتضيه خلقًا لها تعامل به الخلق، وهذا مقام بؤس ونذير شؤم على صاحبها، أعاذك الله -بُنَي- من هذا المقام!

فأول ما تجتهد في تخليصه من نفسك -بُنَي- أن تأتي على

أصل المرض وتبحث عنه في نفسك، وأصل الكبر في نفس المخلوق، الجهل بقدر الخالق -سبحانه-!

فإنها إن قدرت الله حق قدره علمت أن الخلق كلهم سواء، فقد اجتمعوا في صفات المخلوقيَّةِ، والعجز، والضعف، وانعدام القدرة، ومحدودية العقل، والاحتياج للغير، وغيرها من صفات النقص، ولكنهم يتفاوتون فيما بينهم بحسب ابتلاء الله لهم، فبعضهم يبتلى بالصحة والمال، وبعضهم بالمرض والمال، وآخر بالفقر والصحة، ورابع بالفقر والمرض، وكل واحد منهم في ابتلائه على قدر ما أعطاه الله من إمكانات لو أعملها لنجح في امتحانه، وبعضهم يُنسِيه جهلُه بالخالق حقيقة الابتلاء والامتحان فيضجر أو يتكبر، فهو في طريق هلكته مسارع!

والأَوْلَى بالعبد الطالب النجاة في الآخرة، أن يدرك أولًا: قدْرَ الله -سبحانه وتعالى-، فيُعْمل قلبه طويلًا في عظمة الخالق وأسمائه وصفاته، ويتلمسها في كل شيء حوله، وكلما ازداد تأملُ المرء وإعمال قلبه في صفات ربه وأسمائه، كلما تبين

له قدر ربه الملك -جل وعلا-، وكمال صفاته وجمال خصاله، وإحاطته التامة بجميع مخلوقاته، وكلما بان له قدر الخالق، بان له في المقابل حقيقة نفسه وافتقارها إلى بارئها وخالقها، واحتياجها لمعيَّته على الدوام، وفقرها إليه مهما ملكت من أسباب، ثم إذا نظر حوله إلى بقية الخلق علم أنه لا يرفعه عنهم مال ولا علم ولا عقل ولا صحة، وأنَّ كل تلك الصور الوهمية للقدرة والجاه والملك إنما هي امتحان وبلاء شديد قلَّ من ينجو منه سالمًا غانمًا إلا من عصمه الله من رؤية نفسه، وعرَّفه بحقيقة قدره، ثم أراه حقيقة الدنيا ووضاعتها وخستها، وفهمه حقيقة الابتلاء بها؛ لينظر كيف يعمل!

فإذا استقر في نفسه أولا: معرفته بربه سبحانه وقدره، وعامل ربه معاملة العبد لسيده، والمخلوق لخالقه، وانكسر وخضع وذل وتأدب في حضرة الملك -سبحانه-، تيسر عليه ما بعد ذلك؛ فإن له ركنًا شديدًا يأوي إليه كلما نسيت نفسُه قدَرها وتملكها شيء من الكبر أو العجب، فإذا قيل له: اتق الله، ارتعدت فرائصه، وخشعت جوارحه، وحنَّ إلى سابق

عهده من معرفته بربه -جل وعلا- وحقيقة قدره، فقال: اللَّهُمَّ اجعلني من المتقين، وأذعنت نفسه للحق كيفما جاء، وأيا يكن من جاء به!

ثم انتقل ثانيا: إلى التخلص من زهو النفس وكبرها برؤية النفس فوق حقيقتها.

وما أجمل قول مطرِّف بنِ عبدِ الله بن الشِّخِّير -رحمه الله ورضي عنه- حين رأى المُهَلّب وهو يتبختر في جُبَّة خَزٍّ، فقال:

يا عبدَ الله، هذه مِشيةٌ يبغضها الله ورسوله.

فقال له المُهلب: أما تعرفني؟!

فقال مطرفٌ: بلى، أعرفك:

أولك نُطْفةٌ مَذِرَةٌ، وآخرك جِيفَةٌ قذِرَةٌ، وأنت بين ذلك تحمل العَذِرَةَ.

فمضى المُهلب وترك مِشيته تلك.

فإن أنت تأملت -بُنَي- قول المهلب -غفر الله له-:

أما تعرفني؟!

علمت أنه سؤال لا يصدر إلا عمن غفلت نفسه عن حقيقة شأنها، فازَّيَنتْ له وجعلت تحدثه بمزاياه وصفاته الحميدة وخصاله الفريدة حتى أنسته أنه في النهاية عبدٌ لا يعدو ذلك!

ثم تأملتَ إجابة الرجل الصالح والعبد التقي الذي لم يغفل عن الحقيقة، فإنه لم يدخل معه في جَدَلٍ حول صفاته العرضية التي قد يملكها غيره فيستويان، ولا حدَّثَه عن أنها قد تزول منه في لحظة، كما يفعل بعض الوُعَّاظِ، بل رجع به إلى صفاته الأصلية اللازمة التي لا تنفك عنه، والتي تبين له حقيقة نفسه المجرَّدة!

مخلوق خلق من نطفة من ماء مهين، يموت يوم يموت فلا يعدو جيفة يخرج منها رائحة النتن بعد تحلُّلِها، وهو فيما بينهما طيلة حياته يحمل الفضلات والقَذَر!

فعَلامَ التكبر ورؤية النفس وهذه حقيقتك التي ولدت

بها وتعيش بها وتموت عليها؟!

فإذا أكثرت -بُنَي- من حديث النفس بتذكيرها صباح مساء بحقيقتها وافتقارها إلى خالقها، واستعنت على ذلك بانكسارك بين يديه، وذُلِّك وخضوعك له خمس مرات في الصلاة كل يوم وليلة، لَانَ لك قلبُك وهدأت نفسك، ثم انتقلْتَ إلى بقية دركات الكبر تهدمها في قلبك واحدة بعد واحدة حتى يَخلُصَ لك قلبُك، وتلين لك جوارحك، وتتصف بما وصف الله به عبادَه المؤمنين الذين يحبهم ويحبونه حيث قال عنهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وثالثُ دركات الكبر وهو ذميم حقير: الكبر على الضعفاء والفقراء والمرضى وأصحاب الحاجات من المسلمين، وهذا من أخس الكبر وأحقره!

وذلك أن النفس إذا شعرت لحظة أنها أطولُ يدًا، وأعلى كعبًا، وذات فضل، شمخت برأسها، وصعدت إلى عَلٍ تحدث

المساكين من فوقه، وإن زعمت التواضع ببسمة باردة ترتسم على الوجه، وتؤدة في الحديث، وتربيتٍ على الأكتاف، فهي للعارف -ورب الخلق- علامات كبر لا علامات تواضع!

كذلك تجد صاحب الكبر يختصر الكلام اختصارًا؛ مظهرًا الحرص على الوقت، وانقضاء الحاجة إذ هو المهم له، وينصرف سريعًا، بينما هو في موقف مشابه مع من يعلم أنه أعلى منه كعبًا، يودُّ لو أن الكلام لا ينتهي، ولا يزال يتزَلَّف بالكلمة والبسمة والمزاح ليكسر حاجزًا بينه وبين ذلك الكبير الواقف أمامه!

وهذه -والله- خسة نفس لو تأملها العبد ما رضيها لنفسه بحال!

ولو أنه تأمل قول الله -تعالى-:

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء]

ثم رأى مشهدين يوم القيامة وهو يقف عريانًا بين يدي الملك -جل وعلا-:

مشهدًا وهو شامخ بأنفه متعاليًا على الفقراء من المسلمين والضعفاء وذوي الحاجة منهم!

ومشهدًا وهو منكسرٌ ذليلٌ بين يديْ عبد من عباد الله، لا لشيء إلا أن له عنده حاجة!

كيف يكون حاله وهو يقف بين يدي الجبار إذا قال له:

ما حمَلَكَ على التكبُّرِ على عبدي هذا، وما أحوجك للذلِّ لعبدي هذا، وأنا ربكم أجمعين؟!

فاللّٰهُمَّ اجعلنا أذلَّةً على المؤمنين أجمعين، أعزةً على الكافرين، آمين.

أعود فأُذَكِّرُك -بُنَي- بأنَّ تأملَ مواقفِ حياتِك اليوميةِ، ومحاسبةَ نفسك كلَّ يومٍ، ومراقبةَ ردود أفعالها وتطورها، هو عينُ مجاهدة النفس.

ومحاولة تحليل كل موقف ومعرفة أسباب النجاح فيه كمعرفة أسباب الفشل كلاهما سواء!

فلا تتجاهل معرفة أسباب النجاح، فربما تكون أسبابًا خارجة عن أصل العلاج فيغرك الشيطان بها ليوهمك بالنجاح؛ حتى إذا ما انتقلْتَ إلى خطوةٍ أخرى، التفَّ حولَك فطعنك في مقتلٍ!

فإياك أن تغفل عن المراقبة على كل حال، وتحليل جميع المواقف لتصل إلى نقاط ضعفك، وتعلم من أين تؤتى، وما هو مكمن الخطر عليك!

فإن لانت نفسك لضعفاء المسلمين وفقرائهم، ورأيت حقيقة نفسك فيهم ومعهم، وعلمت أنكم مشتركون في العبودية، متفاوتون في البلاء، انتقلت إلى دركة رابعة، قد تكون أهون في القبح مما سبقها غير أنها شديدة في التطبيق بعض الشيء، وهي:

الكبر على اللِّدات -أي: من في سِنِّكَ- والأقران وهذا باب شديد على النفس، لا يخلص من شره إلا توفيق الله -سبحانه وتعالى- للعبد، ثم تدريب النفس على الاعتراف بالفضل

لذوي الفضل، والاجتهاد في إظهار محاسن الأقران إن ظهر منهم الخير، وستر المساوئ والعيوب إن بان منها شيء!

وإياك -بُنَي- ومعاملة الأقران خاصة، والمسلمين عامة بمثل معاملتهم لك، وبمثل ما يتخلَّقون به، فإنَّ العبدَ يعامل الناس بما يرضي الرب -تبارك وتعالى-، لا بما يستحقُّه الناس؛ فإنك إن عاملت الناس بما يستحقون اجتمع فيك الشر كله؛ فإنه لا يمر بك زمان حتى تعامل الكذابَ والخائنَ والمخادعَ وذا الوجهين، وغيرهم.

فإن عاملت هذا بأخلاقه وهذا بأخلاقه، تطبَّعتْ نفسُكَ بطباعهم؛ حتى تصير لك عادة، فيجتمع فيك من الشر ما تفرَّقَ فيهم!

وقد قيل: «**اصنع المعروف في أهله وفي غير أهله، فإن أصبت أهلَه فهو أهلُه، وإن لم تُصِبْ أهلَه فأنت أَهْلُه**».

فالله الله في معاملتك خلقَه!

وسيأتي إن شاء الله مزيد بيانٍ في الباب الأخير.

فإذا أردت -بُنَي- أن تتخلص من كبر هذه الدركة، فأثن على أقرانك وأصحابك بما يظهر لك من خير فيهم، وإياك والمبالغة في المدح، ولا الكذب في الثناء؛ فإنه لا يختلف كثيرًا في السوء عن التكبُّر عليهم، وبطر حقهم، وغمطهم أقدارَهم!

وكنْ وسطًا بين طرفين، فإن كَتبَ صاحبٌ لك ما يُستَحْسَن فاحمد الله -تعالى- له أن وفَّقُه لِمَا كَتبَ، واشكره على اجتهاده فيه، فإن شُكْرَ الناس مِن شُكْرِ الله، ولا تزِدْ بعبارات المغالاة بمثل:

لَمْ يكتبْ أحدٌ في هذا الباب كما كتب فلان صاحبنا وشيخنا وأستاذنا!

ونحو هذا من عبارات تَدُلُّ على جهلك بصاحبك أولًا، وبِتُراث أسلافك ثانيًا، ويظهر فيها المبالغة التي تعود عليك بالمَذَمَّةِ والنَّدامَةِ، واقتصد في المدح بما يكسر كبر نفسك ولا يوقعك في الإثم، والله يتولاك برحمته!

ثم إذا وجدت نفسك قد استقامت لك تجاه أقرانك، فانتقل إلى الدركة الخامسة، وهي:

دركة الكبرِ على من وهبَه الله -تعالى- ما يفضُلُكَ به، علمًا كان أو مالًا أو جاهًا أو سلطانًا أو موهبةً، وآفة هذه الدركة مع خِسَّتِها أنها خَفِيَّةٌ، وجُلُّ مصائبها لا تظهر إلا كعلامات أو من طرف خفي أو بحديث النفس، ولا تظهر في الأغلب الأعم في كلمات أو أفعال، والنفس تحمل النقيض داخلها، فهي تحتاج منك -بُنَي- إلى جهد لتقف على مخابئها في نفسك، ثم تأتي عليها بالقتل.

وأوَّلُ ما يجب عليك في تلك الدركة أن تُفرِّقَ بين باب الأدب مع جميع الخَلْقِ، وباب الذُّلِّ والانكسار مع ذوي المال والجاه والسلطان!

فإنهما قد يتشابهان في بعض الصور ويختلفان في المنطلق!

فلا تُلبِّسْ نفسُك عليك حينها أن انكسارك بين يدي ذي مال أو سلطان إنما هو من باب الأدب مع الناس والتواضع لهم!

وعلامة السلامة من ذلك:

أن يكون أدبك مع الفقير كأدبك مع الغني، وخفض صوتك ولين جناحك ومسارعتك في قضاء حاجتهما سواء!

وتجد همتك في ذات العمل، وحياة قلبك في ذات التواضع، وسعادتك في ذات قضاء الحوائج، لا في أشخاص من عملت لهم أو تواضعت لهم وقضيت حاجتهم!

فإذا استوى عندك الرجلان ووجدت همتك في ذات الأعمال لا الأشخاص، فلن تُحْوَجَ -بإذن الله- لمخلوق، ولن تسارِع في موالاة ذوي المال والجاه على حساب معدوميه، وسيكون الكل عندك سواء -إن شاء الله-!

ولكن اجتهد بُنَي -كما سبق وقلت لك- في مراقبة نفسك في المواقف المختلفة، والوقوف على أسباب النجاح والفشل، ثم تدارك أخطاءك، واجتهد ما وسعك في تحصيل أسباب النجاح، فإن غُلِّقَ عليك شيءٌ، فتذكَّرْ: العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما.

فتوسَّل إلى ربِّكَ واستغثْ به -وحده سبحانه- لا بأحد

من خلقه أن يدلَّك على الصواب والخير وأن يفتح لك؛ فإنه قادر -سبحانه- أن يسوق لك أولياءه ليعلِّموكَ ويرشدوك، إن أحسنت الاستعانة به والتوكل عليه وتعلق قلبك به سبحانه لا بغيره، ثم إن شئتَ فسَلْ أهل الذكر؛ أخذًا بالأسباب وامتثالًا لأمر الملك -سبحانه-، لا اعتقادًا فيهم، ولا اعتمادًا عليهم، والله حسبك وهو نعم الوكيل!

ثُمَّ إذا خلصت لك نفسك بعد نجاحك في التخلص من تلك الدركة -بُنَي- فاعلم أن أهون الدركات وأيسرها على نفسك -إن شاء الله- إن صلح لك ما سبق، هو الدركة السادسة، وأصلها التباس في الفهم وتخليط، وهي دركة يسميها كثير من الناس: التكبر على المتكبر.

فإنَّ الأصل في معاملة المتكبر يأتي في باب دفع الأذى، ولا ينبغي بحال أن تكون القاعدة فيه الكبر أو التكبر عليه.

فإن المُتكبِّرَ مؤذٍ للناس بتكبره، ودفع هذا الأذى يكون بقدره، فربما زاده تكبُّرُ بعض الناس عليه كبرًا فيزداد للناس

أذىً، وربما لم يردعه ثم يعود بالضرر على مَنْ عاملَه بمثل معاملته، فيظل يتكبر عليه هو الآخر؛ ظنًّا منه أنه يردعُه ويُنبِّهُه؛ حتى يتلبس هو أيضًا بالصفة الذميمة، فلا هو دفع أذى المتكبر، ولا سلم من الكبر!

والأصل أن يُحمَلَ كلام العلماء في هذا الباب، ومن قال منهم بنحو: تكبر على المتكبر مرتين!

ونحو: أظلم الظالمين من تواضع لمن لا يلتفت إليه!

وغيرها، بأن القصد من ذلك تجاهله وبيان الاستغناء عنه، وعدم الحاجة إليه، وعزة النفس في الحديث معه، والاستعلاء بالله -سبحانه-، وبيان الاستغناء به -تبارك وتعالى-، وتذكير المتكبر بحقيقة نفسه -كما مر عليك في قصة مطرف والمهلب- بما يكسر فيه شهوة الاستمتاع بنظرة الاحتياج إليه والإعجاب به.

ولو تأملت -بُنَي- ما أتى في قصة قارون -لعنه الله- لعلمت صدق هذا التأويل، فإنه كان يقتات على نظرات الإعجاب من

الخلق، كما حكى ربنا -تبارك وتعالى- عنه:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾

فما الذي يخرج عاقلًا في كامل زينته وأبَّهته لغير لحاجة؟!

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص].

وهذا هو عين ما أراده قارون -لعنه الله- وابتغاه، أن يسمع مثل ذلك، فإنه كان يثني على نفسه بقوله: أوتيته على علم عندي، ولكن النفس تحب ثناءَ الغَيْرِ أكثر من ثنائها على نفسها!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

وترى الذين أوتوا العلم تجاهلوه تمامًا في هذا الموقف، ووجَّهُوا خطابَهم للناس، وأبانوا استغناءَهم عنه وعن أبَّهَته وزينته، وذكَّرُوا الناسَ بصاحب الكبرياء والعظمة!

أما ما واجهه به قومه قبلُ من الكلام فكان تذكيرا له بحقيقة ما هو عليه، وحقيقة نفسه وقدره، كما سبق وأوضحنا، بقولهم:

﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

فهاأنت بني ترى ما واجهه قومه به لما أرادوا نصحه؛ فإنهم ما بادلوه الكبر ولكن أوضحوا له حقيقة ما هو فيه، مع إظهار الزهد فيما أوتي، واستغنائهم عنه!

وهو عين ما أردت، في التنبيه على هذا المعنى، وما يُحمل عليه كلام الأئمة في هذا الباب!

فإياك -بُنَي- والتلبسَ بالكبر في أيٍّ من دركاته، وخلص نفسك منه ومن تبعاته، واجعل ذلتك للمؤمنين، وعزتك بالله ودينه وشرعه على الكافرين.

وعلى ما ذكرت لك في التخلص من هذه الخصلة المهلكة فَقِسْ سائرَ الصفاتِ الذميمةِ التي تراقبها في نفسك، وترغب في التخلص منها.

واعلم أنه لا يلزم أن تتطابقَ الدركات في كل صفة ذميمة، فربما تزيد وربما تنقص، فليست العبرة بعدد الدركات، وإنما العبرة بإدراكها والتخلص منها، وترتيب أولوياتك فيها، وليبدأ دائمًا سُلَّمَ أولوياتك من عند سيدك ومولاك وخالقك -سبحانه-، ثم ثَنِّ بنفسك، ثم انتقل إلى بقية الخلق الأقرب فالأقرب، والله يتولاك برحمته!

تنبيه هام:

اعلم -يا عصمك الله- أن الشيطان الرجيم يخطو معك في الأغلب الأعم من الأهون إلى الأقبح والأكفر، لا العكس!

فإنه لا يُحدِّثُك عن الكبر على الله -سبحانه وتعالى- والكفر به أول ما يحدثك، وإنما يبدأ معك من حيث يرى ثغرتك!

فإن كنت على عتبات الدركة الرابعة -مثلًا- بدأ من عندها.

وربما بدأ قبلها بدركة حتى يُمَكِّنَها من قلبك، ثم ينتقل بك إلى التي تليها!

وكما يقال: خير وسيلة للدفاع الهجوم!

وإنما هي حَرْبٌ بينك وبين الشيطان الرجيم، وهي جِدٌّ ليست بالهزل؛ لذا قال ربنا -جل وعلا-:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦].

فإنَّ خيرَ وسيلةٍ لمهاجمة اللعين ومناصبته العداء والتغلب عليه، أن تَقْتَلِعَ المرضَ من جذرِهِ أَوَّلًا؛ فإنه لا يكاد ينبت بعد أن تقتلعه، وأقصى ما يستطيع فعله أن يطيل أمد رطوبته فلا يجفَّ سريعًا، فيظل يسقيه ويرطبه بماء الكبر، لعلك تعاود التفكير، فتنزعه مرة أخرى، وهو -لعنه الله- لا يملُّ ولا يهدأ ولا يفتر، فتنبه -بُنَيَ- لخطواته، ولا تضع نفسك معه موضعَ الدفاع، واجعل راية الهجوم في يدك، وأقبل ولا تخف واستعن بالملك -جل وعلا-، وتوسل إليه واستغث به

وتوكل عليه، يهديك رشدك ويعصمك من الشيطان الرجيم ويجنبك خطواته، ويزكي نفسك، بإذنه سبحانه، والحمد لله رب العالمين.



الصدق

باب السلم والإسلام، والأمانة والإيمان، وبلوغ درجات الإحسان!

باب يقودك إلى كل خير، ويصرف الله عنك به كل سوء وشر!

باب من تَزَيَّا به فقد تَزَيَّا بلباسِ التقوىٰ، وتسَرْبَلَ بالهُدَى، وتعطَّرَ بالعفاف، وتجمَّلَ بالاستقامة!

مفتاحُه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

وختامه:

الفوز بأعلى الدرجات في جنات النعيم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

اعلم -بُنَي- أنَّ صدقَك مع الله -تعالى- هو طريقُ فَلَاحِك، وسبيلُ رضاه الأوسعُ عنك!

فإنَّ أسوأ ما يضع العبد فيه نفسه أن يُخَادِعَ من لا يُخَادَع، ويكذِبَ من يعلم جهره وسره، وأسوأ منه حالًا من يفعل ذلك ثم يشهد الله -تعالى- على ما في قلبه!

فإن علمت -بُنَيَ- أن سرك وجهرك عند الملك العليم القدير سواء، وأنك عَارٍ بين يديه، لا تملك لنفسك سترًا إلا أن يسترك هو -سبحانه-، تيقنت أن لا ملجأ ولا منجىٰ من الله إلا إليه، وأن صدقك مع ربك هو طريق نجاتك الوحيد، وأن صدقك -رغم ذنبك- واعترافك له بخطيئتك، واعتذارك عنها، والاستغفار منها أولى لك وأفضل مع الله من كذبك على نفسك ومحاولة التأوُّل لها، والتماس الأعذار والبحث عن مخارج لمعاصيك في صورة تأويل أو اجتهاد!

ثم اعلم -يا بهجة القلب- أن الصدق على درجات كذلك:

وأن أوَّل درجاته وأعظمها وأكرمها صدقُك مع ربك، والإقرارُ بخطئك وذنبك وتقصيرك وعجزك بغير مكابرة ولا ادعاءٍ خلافَ ذلك!

ثم نسبة كل فضل وخير أصابك، أو أصاب أحدًا من خلقه على يديك إليه وحده -سبحانه-، فمنه الخير وإليه، ومنه الفضل وله -تبارك وتعالى-.

وصدقك مع ربك يُلْزِمُك -بُنَي- أن تتأمل حقيقة شهادتك أن لا إله إلا هو، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، فإنَّ لها لوازمَ، وبها تكليفات ومقتضيات لا تكمل إلا بها، ولا تتم إلا بطَرْقِ أبوابها وولوجها.

وإن من صدقك ربك في تلك الشهادة أن تقر له بحق الأمر كما أقررت له بالخلق، ولا يستقيم لمؤمن إيمان بالله -تعالى-، حتى يذعن للملك -سبحانه- فيُقِر له بالتشريع ووجوب الإذعان لأمره في كل شأن من شؤون حياته، وأن يصدق في طلب مراد الله؛ فإنَّا رأينا أقوامًا ينطقون الشهادة دخولًا في الإسلام، ثم يتنكرون للخالق بعدها في كل شؤونهم وأحكامهم؛ زاعمين أن المولى -تبارك وتعالى- خلقَ الخلقَ وأعطاهم حرية الاختيار، وعليه الحساب، ثم يتألَّون على

الله -تعالى- بعد أن عطَّلُوا أمرَه، وأنكروا فرضَه، وحرَّفُوا أحكامَه، وأفسدوا فهمَ قرآنِه بزعمهم أن رحمة الله تسع من فعل هذا كله وإن لم يتب؛ لأنه يجتهد بحسب طاقته وفهمه، حتى إنهم يخالفون صريح كتاب الله؛ اتِّباعًا لأهوائهم وعقولهم الفاسدة، ولا يكتفون بذلك بل يرمون مخالفيهم والمنكرين عليهم عبثَهم بكل نقيصة، ولم يُؤتَ أمثالُ هٰؤلاء -بُنَيَّ- إلا من كذِبِهم على خالقهم وبارئهم وانعدام صدقهم مع الله أولًا، ثم على أنفسهم والناس!

ولو أنهم صدقوا الله -سبحانه- لرجعوا عما يفعلون أو يقولون، أو قالوا -إن أصروا على منكرهم-: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ ...﴾ [النساء: ١٥٠]، فهٰؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا ...﴾ [النساء].

غير أن أمثالهم كأمثال المنافقين في زمان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ينخرون في جسد الأمة من الداخل،

ويظهرون الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم، ويبطنون النفاق ويفسدون دين الناس بأفعالهم وأقوالهم، ولا أقول -بُنَي- أن كل من يقع في مثل هذا فهو من المنافقين أو الكافرين على التعيين، بل ربما كان من الجاهلين جهلًا مركبًا، فهو يجهل ويجهل أنه يجهل، ويكذب على نفسه بإيهامها بالعلم والعقل، ويكذِبُ على الله -سبحانه- بالتقول عليه بغير علم، فَهُمَا وإن اشتركا في السوء إلا أن أحدهما يحركه باطنُ سوءٍ ومكرٍ، والآخرَ يحركه باطنُ جهلٍ وقلةِ عقلٍ، وحسابهما على ربهما الذي يعلم السر وأخفى.

أعود فأقول -ولدي-:

إن من صدقك مع الله -تعالى- أن تقر له بالخلق والأمر حقيقةً لا ادِّعاءً؛ فإن أصابك شيء من الخطأ أو الزلل أو السهو أو حتى الهوى فلا تتأول لنفسك، بل اصدق ربك وقل: رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي.

فإن صدقك مع ربك ولو بكبير ذنب ينجيك إن شاء الله.

وكذبك على ربك ولو مع اللمم يهلكك إن لم يتداركَكَّ ربك برحمته!

ثم اعلم -بُنَي- أنك إن اجتهدت في الصدق مع الله -تعالى- حتى استقام لك قلبُك، وبُغِّضَ له الكذب، وصار يستكرهه في حق الله -تعالى- ويشمئز من الوقوع فيه بين يدي الخالق -جل وعلا-، تيسر عليك الانتقال إلى الدرجة التي تليها وهي أهون عليك -إن شاء الله-، ألا وهي الصدق مع النفس!

وتيقن -بُنَي- أن الذي يكذب على ربه وهو يعلم أن الله -تعالى- يعلم سره وجهره، لا يستقيم له الصدق مع نفسه ولا مع أحد من الناس؛ فإن كذبًا على الله ليس ككذب على أحد، وكذلك الكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكلاهما طريق إلى النار، إلا أن يتوب صاحبه ويصلح ويُبَيِّن!

ومن تجرأ على الكذب على الله -تبارك وتعالى-، فهو على غيره أجرأ، أعيذك بالله من الكذب وأهله!

فإن عرفت قدر الله -تعالى- ولزمت الصدق معه في

كل أحوالك؛ فخذ حذرك -بُنَي- من نفسك الأمارة بالسوء، واحذر أن يباغتك الكبر عن الاعتراف بالذنب والعجز والضعف، فيحملك على الكذب والتأول للنفس.

واعلم -ولدي- أنك إن استطعت أن تكذب على الخلق جميعًا فيصدقونك؛ فإن نغزًا في القلب لا يزال يكدر عليك حياتك ما دام في القلب حياة، لعلمك بكذبك على الله -جل وعلا-!

ثم وقوفًا بين يدي الله تعالى لن ينفع معه ما تأولت به لنفسك، وكذبت به على الخلق أجمعين، فحينها أين تذهب ولمن تَفِرّ؟!

فتأمل جيدًا قلبك، وإياك وخطوات الشيطان في إيهام النفس خلاف ما يظهر لها، وكن من الصادقين.

وإذا وقعت في المعصية أو الذنب أو اشتهيت محرمًا أو وقعت لك شبهة فلا تُسَمِّ شيئًا منها بغير اسمها كذبًا على نفسك، وقل:

عبدٌ عاصٍ غافلٌ مذنبٌ يارب اشتهى بضعفه، وأذنب على أرضك وتحت سمائك، يستغفرك من ذنبه ويتوب إليك، ويعتذر عما بدر منه، ولا يكابر ولا يسمي معصيته بغير اسمها، فتب عليه إنك أنت التواب الرحيم.

وإياك -بُنَي- واتباع الهوى؛ فإنه أوسع أبواب الكذب على النفس.

فإن النفس تهوى ثم تجتهد في تلبيس الباطل لباسَ الحق، ثم تحملك على التأول، ثم الكذب، إلى أن ترديك في الهلكة، والعياذ بالله!

وصدقك مع الله أولا ثم مع نفسك يقطع عليها الطريق من أوله.

ولعلك تلحظ ذلك جليًّا إذا حدثت أحدهم عن إجماع الأئمة الأربعة على حرمة المعازف -مثلا-؛ فإذا به يتململ ويتأفف ويروح ويجيء، وتدور به الدوائر، ولا يزال على ذلك الحال حتى يميل لهواه فيتلمس كل شاردة وواردة تثبت في

المسألة خلافًا، ثم يتدرج في الأمر حتى إذا وقع له أيُّ قولٍ عدَّه دليلًا، ثم يتنكر لأصول الفقهاء وقواعدهم في الاستنباط والاستدلال، بل ربما يتنكر لمذهبه في الاستدلال والفهم؛ لأن المسألة وافقت هوى نفسه!

ولو صدق مع الله وصدق نفسه من أول الأمر لقال ذنب أسأل الله أن يتوب عليّ منه، وهو -سبحانه- لعبده المنكسر جابرٌ!

وكذا من يتلمس قولًا شاذًّا من هنا أو هناك يبيح به التدخين أو غيره من الذنوب؛ فإذا وقع على قولِ أيِّ منتسبٍ للعلم ولو كان مدلسًا أو بليدَ الذهنِ أو مفتونًا، كذب على نفسه أولًا بإثبات الخلاف بأمثال هؤلاء، ثم كذب ثانيًا برفع البليد إلى درجات المجتهدين ليقيم به حجة، ثم كذب ثالثًا بالمجاهرة بذنبه وإظهار الرضا به، ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا!

وماذا عليه لو قال: أشهدك ربي أني ما عصيتك استهانة

بعذابك، ولا زهدًا في جنتك، ولا استخفافًا بمعصيتك، ولكن ضعف نفسي وقلة حيلتي أوقعتني في الذنب، وإني لمجتهد في التوبة منه، فاغفر لي وأعني عليه، إنك وحدك المستعان وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك؟!

أي بُنَي:

احفظ عليك قلبك بالصدق، مهما عظمت ذنوبك؛ فإن ربك فتح بابه للأذلاء المنكسرين المتواضعين المخبتين له، وأغلق بابه دون كل عُتُلٍّ متكبرٍ جبارٍ، أعيذك بالله أن تكون أحدهم!

وعلى الجانب الآخر -بُنَي- وهو جانب الطاعات والعبادات والمعاملات الحسنة وغير ذلك من طرق إتيان الخير، فإن وجدت من نفسك تكاسلًا عن طاعة أو سعي في خير، فإياك ثم إياك أن تأوله أو تتلمس لنفسك الأعذار، فتكسل عن القيام بحجة إرهاق المذاكرة أو العمل، وتكسل عن قضاء حوائج إخوانك بحجة ضيق الوقت والأولويات، وتكسل عن

القرآن وورده بحجة الانهماك في طلب العلم وأنَّ كليْهما خير، فهذه من أخفى خطوات الشيطان في تعمية منازل الطاعات والأولويات في عبادتك وقد نوَّهنا لها من قبل.

أقول: إياك -بُنَيِ- وتأويل شيء من هذا وتلمس الأعذار، فإنه يخفف أثر نفسك اللوامة عليك، كما أنه من أنواع الكذب على النفس!

فإن الأولى بك أن تعترف بالتقصير، وثقل الطاعة عليك، وضعف القلب عن إشعال الجوارح لتجتهد في الطاعة وعمل الخير، فإن اعترافك بالتقصير والعجز يعينك على الاستدراك والاجتهاد إن صلحت النية!

أما التأول والتماس الأعذار فإنه يقتل لوم النفس قتلًا!

فأيُّ شعور بالتقصير والحرج بعد ذلك يحمل النفس على الاستدراك والاجتهاد إن كانت لا ترى التقصير بل تجد المبررات والأعذار فقط؟ حتى إن بعضنا لربما هاجم من ينصحه ببعض الطاعات أو السعي في طرق الخيرات؛ بأنه لو نزل به ما به،

أو كلف تكليفاته، أو عنده بعض مسؤولياته والتزاماته، ما صلى لله ركعة!

وهذا من أقبح الأعذار، وأخس أنواع الكذب على النفس؛ فهو القتل المتعمد للنفس اللوامة ولكل ناصح بخير، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

فإياك -بُنَي- ومخادعة نفسك والكبر على الاعتراف لربك بالتقصير والذنب، واجتهد في الصدق مع نفسك ما وسعك، ولا يحملنك سوء خلق أحدهم أو سوء نصيحته، أو أسلوبه المنفر في أمر بمعروف أو نهي عن منكر على ألا تمتثل لما جاء به من الخير، واجْتَهِدْ في قبول نصيحته ولو بما حملت من سوء أسلوب وخلق.

فإن أبت نفسك إلا أن تردَّ عن نفسها أذاه، فكابرت وبحت ودفعت عن نفسها، فإياك ثم إياك إن اختليت بنفسك أن تنشغل بأسلوبه أو بِرَدِّكَ عليه، بل انشغل بما يحمله كلامُه من الحق، فإن وقفت على حق فيه فخذه ولا

تكابر، واعمل به واخضع للحق لا للشخص، واكسر كبرَ نفسك، ولا تكْذِبْها فتُحَرِّفَ الحقَّ انتصارًا لنفسك.

فإن أبت نفسك ذلك في حينه لشدة ما ترى أنه نزل بك من أذاه، فأرجئ نفسك وأمهلها زمانًا حتى تهدأ، ثم راجعها إن سكنت، وأَبِنْ لها الحق ثم احملها على العمل به، ولا تقبل منها ما دون ذلك، فليس من وراء ذلك تزكية للقلب، والله يعينك على نفسك!

فإذا وجدت -بُنَي- من نفسك استقامةً على الصدق مع الله -تبارك وتعالى- والذي هو أصل كل صدق، والباقي فروع له، ثم استقامت معك على الصدق، وصارت تعرف المعروف وتسميه باسمه، والمنكر وتسميه باسمه، انتقلت إلى درجة الصدق في معاملة الخلق وهذه الدرجة الثالثة متفرعة إلى أربعة فروع:

فطبقة من له بأس وسلطان عليك إن أراد أن يعاقبك فعل.

والثاني: من له بأس وسلطان على غيرك ربما إن اجتهد في

عقابك أصاب ذلك أو لم يصبه.

والثالث: ليس له بأس ولا سلطان عليك، لكن ما بينكما عزيز على نفسك.

والرابع: ليس له بأس ولا سلطان عليك ولا يجمعكما جامع، وهم أغلب الناس.

فأما الأول فأمثلته كثيرة وأعلاها وأعظمها والداك، فإن لهما سلطانًا وبأسًا عليك وعقابهما لك متاح، وكذلك رئيسك في عمل، أو شيخك الذي يعلمك، أو نحو ذلك؛ فإن لكل واحد منهم عليك يدًا مع اختلاف الحكم الشرعي لكل واحد منهم وتكليفك تجاههم.

وكثير منا يجد بلاءه الحقيقي في هذا الباب؛ فإنك تجد حجتك على لسانك بالكذب تجري لتعفى من العقوبة ولا يمنعك عنها مانع ظاهر.

فإن أنت استسلمت لطلب النجاة ولو بالكذب أَلِفَتْه نفسك واعتادته، بل ربما أَزَّتْك على المخالفات لتصيبَ شعورًا

وهميًا بالانتصار إذا خدعتَ أحدَ من له سلطان عليك، فعفا عنك وسامحك، بل ربما اعتذر لك عن ظنه بك السوء!

ولا تزال بك -من هذا الثغر- تؤزك حتى يصير الكذب لك خلقًا!

وإن أنت دافعتها وآثرت عاقبة الصدق في الآخرة، وكذلك عاقبته في الدنيا على قلبك وسلامته وخلوصه من سيء الأخلاق، وإن كان ظاهر الأمر العقوبة تخلقت بالخلق الحسن، وهو خلق الصدق!

ولا تظنن -بُنَي- أن اكتساب الأخلاق الحميدة شيء جامد لا ارتباط فيه بين خلق وخلق، بل إن بعض الأخلاق تكتسب متممات لغيرها أو منح أو مكملات!

وعلى سبيل المثال في نفس الباب:

إذا صدقت مع من له سلطان عليك فإنك على نفس المنوال ستتحمل عاقبة فعلك، وتعتاد تأمل العواقب حتى لا تقع في حرج مستقبلًا، أو تتعرض للعقاب، وإذا تحمل الرجل عواقب

أفعاله بنفسه، ولم يعتد إلقاءَها على غيره، أو تأويلها وتبريرها، أعمل قلبه في أثر كل عمل يقدم عليه، ثم يأخذ قراره بالفعل أو الترك، ثم يوطِّن نفسه على تحمل عقبات قراراته فعلًا كان أو تركًا، وهذا هو عين الرجولة وتحمل المسؤولية والاعتماد على النفس!

بدأ بالصدق وانتهى بمبلغ الرجال!

فتأمَّلْ -بُنَي- عواقب اكتساب الأخلاق الحميدة؛ فإنها يفضي بعضها إلى بعض، ويعين بعضها على اكتساب الآخر.

ثم إذا عهدت في نفسك الصدق مع من له سلطان عليك، وبيده إنزال العقوبة بك، كنت عن الكذب على من ليس له سلطان مباشر عليك أو غيره من بقية الطبقات، أبعد!

واعلم -بُنَي- أن الطبقات الثلاث الأخرى ذكرتها لك لا لعظمتها في ذاتها، أو صعوبة التخلص منها؛ فإنك إن حصلت الصدق مع الله ثم الصدق مع نفسك وكذلك مع أصحاب السلطان والحقوق عليك كنت أبعد من الوقوع في الكذب

على من دونهم، لانعدام الدافع أو السبب الذي يحملك على الكذب عليهم!

وسبب ذكري تلك الطبقات الأخرى -بُنَي- أن تنتبه لخطوات الشيطان؛ فإنه قد يعجز عن الدخول لك من تلك الأبواب الموصدة التي غلقتها بالأقفال، وأوقفت حراسك يحرسونها حتى لا يدخل لك منها اللعين، ثم تُولِيها كلَّ اهتمامِك، فيظل يناوشك من تلك الأبواب الصغيرة في نظرك ليصيب منك كذبة واحدة -ولو مزاحًا- يفتح عليك بها بابًا للكذب، فإن ذقت طعم الكذب مرة وتوهَّمْتَ حلاوته، أزَّك على غيره من طرف خفي، ويظل بك حتى يباغت حراسك فيصيب منك ثغرة يدخل منها ويفتح بها المغلق فيعيدك إلى حيث بدأت، وذلك من الخسران بمكان!

ولعل هذا التنبيه يدخل ضمن الحكمة من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-:

«ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له» -رواه الترمذي وحسَّنه-.

فتنبه -بُنَي- ولا أطيل عليك؛ فكل لبيب بالإشارة يفهمُ!

وأختم هذا الفصل ثم الباب بوصية هامة؛ لعلها تكون لك -بني- مرشدًا في رحلة تزكيتك قلبَك:

اعلم -أصلحك الله- أنَّ كلَّ أمر تقدم عليه بغير معونة الله لك فإنه إلى فشل وفساد!

وأن كل أمر تقدم عليه فقيرًا ذليلًا منكسرًا متواضعًا مستعينًا بربك متوكلًا عليه؛ فإنه إلى خير وبركة -إن شاء الله-!

وتذكر دائمًا وأبدًا وصية جدك -رحمه الله ورضي عنه-:

أوسع أبواب الوصول إلى الله وأقلها روادًا:

«باب الذل».

والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على خير خلق الله أجمعين.



باب العبودية في علاقتك بخلق الله

أي بني:

احفظ ثلاثا عن أبيك ينصلح -بإذن الله- حالك وقلبك في معاملة الخلق:

• أصلح ما بينك وبين الله -سبحانه-، ثم ما بينك وبين نفسك، والزم الصدق في جميع أمرك ينصلح ما بينك وبين الخلق.

• وعامل الله -تعالى- في خَلْقِه، وانظر في كل علاقة واجبة عليك أو علاقة تُنشئها من نفسك فالزم ما يرضي الله عنك فيها، وإلا فاعتزلها بقدرها!

• وإياك والمجاملة في العلاقات، أو إنزال أحد من الناس فوق منزلته؛ فإنك لا تخلو -إن فعلت- من أحد حالين: ظالم أو مظلوم مكدر البال والخاطر.

اعلم -ولدي- أن الله -سبحانه- خلق الخلق -كما أخبر- من ذكر وأنثى وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، ثم وضع ميزانًا

للأفضلية المطلقة، وهي التقوى، تلك التي لا يطلع عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل، فإن ما في القلب موكولٌ لخالقه، أو ما يوحيه خالقه لرسله، وهو في حقهم مقيد.

لذا؛ وجب عليك أن تعلم أن التفضيل المطلق بين الناس لا يكون لأحد من البشر، وإنما يَكِلُ اللهُ للناس الأحكامَ بظاهر الأعمال والأقوال فقط، وهو -سبحانه- يتولَّى سرائرهم.

ثم اعلم -بُنَي- أن أقوامًا تسلطوا على الناس فعاملوهم بالظاهر، ثم لم يلبثوا أن اتهموا بواطنهم، وظنوا أن ما يظهر لهم يكفي للجزم بحقيقة الباطن، وهو ضلالٌ مبينٌ، وافْتِئَاتٌ على رب العالمين، وقد كان يكفيهم الحكم بالظاهر والإمساك عما سواه!

وعلى النقيض أقوامٌ زعموا أن الظاهر والباطن كلاهما موكول لله، وأن الناس ليس لهم أدنى حق في الحكم على غيرهم، وأنَّ كل اختلاف يجب أن يُحترم، ولو كان الاختلاف في إيمان وكفر، وإسلام وإلحاد، وميَّعوا الدين، وعطلوا فريضة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسووا بين الفاجر الفاسق بل والملحد الكافر، وبين المسلم الموحد المؤمن، يقولون زورًا وباطلًا من القول:

لعلَّه يكون أفضل عند الله منك!

وكذبوا وربِّ الكعبة، لا يكون كافر عند الله أفضل من مسلم موحد، وإن فعل مافعل!

والحقُّ -بُنَيَ- وسط بين طرفين:

فلا يزال الناس بخير ما أخذوا على يد الفاسق والمذنب والعاصي والظالم، وأمروهم بمعروف ونهوهم عن المنكر، وضيَّقوا عليهم سبلَ الذنوب؛ حتى يؤوبوا إلى ربهم؛ فإن لم يفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

«أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، من أصاب من هذه القاذورات شيئًا، فليستتر بستر الله، فإنه من يبد لنا صفحته، نقم عليه كتاب الله». -يروى مرسلًا عن زيد بن أسلم

في الموطأ، ويرويه غيره كالبيهقي بسند صحيح عن ابن عمر -رضي الله عنه-.

ويكفيك النظر في أحوال المسلمين اليوم لتعلم أثر هذا الباطل الذي يدعون اليه، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

ثم اعلم -بُنَيَ- أن الله لا يقبل من أحد صرفًا ولا عدلًا، ولا تعميرًا للدنيا ولا نفعًا للناس إلا بإسلام!

فإن لم يسبقِ الإسلامُ عملَ العاملِ فهو هباءٌ منثورٌ يُردُّ يوم القيامة في وجه صاحبه، وإن فعل كل خير واجتنب كل شر!

أولـئك الذين قال الله فيهم:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

ولا يغرنك أقوالُ ضعافِ العقولِ معدومي الاعتقاد من جهال المسلمين الذين أغوتهم عقولهم وظنوا فيها النجاة أن يتألى أحدهم على الله فيقول: الله أعدل من أن يعذِّبَ عبدًا خدمَ البشرية ونفع الناس وإن كفر بالله العظيم!

فهذا أشد جهلًا من الدواب!

فإن الله -سبحانه- ما خلق الخلق ولا خلق الدنيا بغرض تعميرها أصالةً، وإنما خلق الخلق ليعبدوه، وليتبلغوا بالدنيا لإعمار الآخرة التي هي الحياة السرمدية الأبدية.

وقد قال -جل جلاله-:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾.

وقال -سبحانه-:

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) ﴾ [النساء].

وقال -تعالى-:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ... ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وقال -سبحانه-:

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء: ١٤٧].

فلو تأملت -بُنَي- ما أخبر به الملك -تبارك وتعالى- من حال خلقه، وما يقبله منهم وما لا يقبله، لعلمت أن أولـئك الجهال الذين لم يكتفوا بالتألي على الله وإلزامه ما لا يلزمه سبحانه، قد زادوا جهلًا إلى جهلهم بأن نسوا حقيقة أنفسهم بكونهم عبيدًا للملك -سبحانه-، وغرَّهم حِلْمُه بهم أن وضعوا أحكامًا وقواعدَ للدنيا يُحادُّونَ بها قواعده وأحكامه، وعطلوا شرعه، وأنكروا سنة نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وضربوا آيات الله بعضها ببعض، ولبسوا على النَّاس دينَهم، ثم لم يكتفوا بذلك فزادوا في طغيانهم حتى همُّوا بوضعِ قوانينَ لحسابِ الآخرةِ، وما يجب على الله -تعالى- فعلُه في حساب الناس يوم القيامة، ومن يستحق الجنَّة والمغفرة، ومن يستحق النار والعذاب، حتى إنك لتسمع بعض فُسَّاقِهم وعتاةِ الكفر منهم يقولون:

أنا لا أؤمن بإلـه يعذب من خدم البشرية!

أو: لا أؤمن بإلـه يحصر جنته على من نطق شهادتين ثم فعل ما فعل!

وهذا والله لمن تأمل من أعظم الكفر والطغيان، ولو نظرت في كلامهم مرة أخرى ما وسعك إلا أن تقول: سبحانك ربي ما أحلمك!

ولعلك -بُنَيَ- تسَّائل الآن:

ما علاقة كل ما ذكرت بباب العبودية في معاملة الخلق؟

وما علاقة تلك الأمثلة بما يستقبل من كلام في الباب؟

فأجيبك -بُنَيَ- بأني ذكرت لك هذه النماذج أولًا لأحذرك أن يكون واحدًا منهم من أصحابك أو رفقتك أو حتى في دائرة معارفك بحال!

فإن أمثال هٰؤلاء لا يحق لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يؤاكلهم أو يشاربهم أو يجالسهم أو يتودد إليهم أو يتوددون إليه!

واعلم -بُنَيَ- أنه لا يستقيم لك إيمان وإحسان حتى يكون الذي يؤذيك في ربك -سبحانه- وفي رسوله -صلى الله عليه وسلم- ودينه، أبغضَ إليك ممن يؤذيك في والديك وزوجك وولدك وجميع أهلك!

أعود فأقول:

عبوديتك لربك في علاقتك بخلقه على أربعة أقسام، ويندرج تحت كل قسم أنواع.

فأما الأقسام الأربعة، فأولها:

علاقتك بالأنبياء والمرسلين ثم بأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وآل بيته الأكرمين -رضوان الله عليهم أجمعين-، ثم بالوالدين والأقربين.

وثانيها: علاقتك بمجتمعك ومحيطك.

وثالثها: علاقتك بأمتك المسلمة في كل مكان.

ورابعها: علاقتك بغير المسلمين.

وقبل أن أخوض معك -بُنَيَ- في تفصيل تلك الأقسام فتذكَّرْ أن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي يختار لك ويقرر كيف تعامل خلقه، وأنك إن أردت الفلاح في دنياك وآخرتك فلا تقدم على اختيار الله لك اختيارَ أحدٍ من خلقه، ولا

يغرنك دعاوى الإنسانية والسلام العالمي وحقوق الإنسان وغيرها من دعاوى العدل العريضة التي يكيلون فيها بمكيالين، ليس للمسلمين حظ فيها؛ إلا أن يكون نكالا واقعا بهم، أما الحقوق فهي محصورة على غير المسلمين كائنا من كانوا؛ فإن راجعهم الناس في قوانينهم وأقاموا عليهم بها الحجة استحدثوا استثناءات واخترعوا قوانين جديدة تُأَوِّلُ لهم فِعَالَهُم تجاه المسلمين، وهذا دَيْدَنُهُم من قديم الزمان، فإياك أن تكون إِمَّعَةً تسير خلفهم ووراء مصطلحاتهم، وإياك وجحر الضَّبِّ الذي أخبر عنه سيدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ فإنك إن تفعل لا تجد لك انتماءً ولا هوية ولا اعتقادًا بعدها، فتكون مسخًا مشوهًا ليس له أصل يعود إليه، فهو مقطوع من شجرته.

ذلك، والزم مراد الله منك في كل علاقاتك بخلقه؛ فهو خالقهم وهو أعلم بهم سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

إن استقر ذلك في قلبك -بُنَيَ- فعلى بركة الله وباسمه نبدأ بيان أقسام علاقاتك بخلق الله -تبارك وتعالى-:

فأما القسم الأول: فنبدأ فيه بالأنبياء والمرسلين ثم بأصحاب رسول الله وآل بيته الأكرمين -صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم أجمعين- ثم بالوالدين والأقربين.

ولعلك تسأل لم ذكرت الأنبياء والمرسلين وأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع الوالدين والأقربين، وما وجه ذكرهم في باب المعاملات؟

فأقول ذكرتهم قبل الوالدين والأقربين؛ لأن حق الأنبياء والمرسلين أعظم من حق والديك عليك، فالإيمان بهم جميعًا واجبٌ عليك، والكفر بواحد منهم كفرٌ بالجميع، كما أن توقيرهم وإجلالهم وموالاتهم، ومعاداة كل مسيءٍ لهم واجب عليك عظيم، ثم ذكرت أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لعظم حقهم على جميع أمة الإسلام، فلولاهم بعد فضل الله علينا ما كنتَ وأبوك وأمك وجدك من المسلمين، ولولا

أمانتهم وحسن ديانتهم وحملهم هَمَّ هذا الدين بِحَقِّه ما بلغنا منه شيء على وجهه كما نزل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم خصصتهم كذلك لتعلم عظم مقامهم ومكانتهم عند المسلمين، وردًّا على شبهات بعض السِّفْلة من الغلمان والسفهاء الذين بلغ بهم الفشل في تغيير واقعهم ومحاولة إعادة أمجاد المسلمين للتفرغ إلى النبش في بعض ما وقع من الصحابة -رضوان الله عليهم- من أخطاء -ولا ندعي لهم العصمة- وتحميلهم خطايا كل من أتى بعدهم، لا يختلف حال هٰؤلاء السفهاء عن حال أبناء عمومتهم الذين جعلوا كل خطايا بني آدم في رقبة أبيهم آدم -عليه السلام- وحملوه سبب كل ذنوبهم؛ لأجل أن ذريته خرجت من الجنة بسببه، أو حمَّلوها زوجه أُمَّنا حواء -عليها السلام-، وكلتا الطائفتين في السفاهة مقترنان.

فإن علمت ذلك -بُنَي- فاعلم أن أنبياء الله جميعًا ورسله يجب عليك الإيمان بهم إيمانًا لا يخالطه شك، وأن الله -تبارك وتعالى- اصطفاهم من خلقه لتبليغ دينه، وأنهم جميعًا أتوا بالإسلام الخالص ودَعَوْا أقوامهم إليه، وأنزل الله مع رسله

الكتب والشرائع، فكانوا جميعًا مُبَلِّغين عن الله -تعالى- رسالَتَه لأقوامهم، حتى ختم الله الرسالات برسالة النبي الخاتم سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-، فهم جميعًا -صلوات الله وتسليماته عليهم- دينهم واحد، وشرائعهم شَتَّى، فواجبك -بُنَي- تجاههم الإيمان بهم وموالاتهم وتوقيرهم وإجلالهم، ورد الكذب عنهم من أتباع النِّحَلِ التي حرفت دين الله -سبحانه-، وابتدعوا مذاهبَ سَمَّوْها أديانًا، ونسبوها لرسل الله -صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين-، فاعلم ذلك -بُنَي- واعلم كذلك أننا -نحن المسلمين- أحقُّ برسل الله منهم أجمعين، فإنَّا آمنَّا بما جاء به المُرْسلون لا نفرق بين أحد منهم في مجمل الإيمان والتوقير والاحترام، ثم زِدْنا على جميع المنتسبين -وإن كان انتسابهم زورًا- لرسل الله بأن آمنا بالنبي الخاتم -صلوات الله عليه وتسليماته-، فكنا أتباع الرسل حقًا، والمؤمنون بهم عدلًا وصدقًا!

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ

﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة].

ثم اعلم -بُنَي- أن أصحاب الرسل كانوا دائمًا وأبدًا أصحابَ النصيبِ الأعظم من الأجر، وكذلك من الوزر، وبيانه:

أنَّ أصحابَ الرسل هم أولى الناس باتِّباعهم، وحفظ رسالتهم والدعوة إليها، والجهاد في سبيلها، وتبليغها كاملة غير منقوصة، فإن هم أقاموها بحقها وحفظوها كما ينبغي لم يلحقهم في الأجر أحد!

وإن هم ضيعوها أو حرفوها أو كتموا شيئًا منها كان لهم من الوزر ما ليس لغيرهم؛ لتضييع أمانة الدين ورسالة رب العالمين.

وإنا لا نعلم أمة من الأمم ولا أصحاب نبي من الأنبياء قاموا بحفظ رسالته على الوجه الأتم الأكمل كأصحاب المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، وبلغوها مَنْ وراءهم ودعوا إليها وجاهدوا في سبيلها، وبذلوا النفس والمال والعمر حماية

لجنابها، ودعوة إليها ونشرًا لها في جميع أصقاع الأرض، ولم يزل أفرادهم على ذلك، حتى سلموا الأمانة من جاء بعدهم تامة كما نقلوها عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-!

فلو لم يكن لهم من الفضل والخير سوى ذلك لكفاهم، ولأوجب عليك إنزالهم منزلة ليست لأحد سوى ما فضَّلَ اللهُ به الأنبياءَ والمرسلين!

فكيف بأناس نقلوا الدين على هذا الوجه الأتم الأكمل، ولم يكتفوا بذلك، بل جاهدوا في سبيله وفتحوا به الدنيا، فعبَّدوا الخلائق لخالقهم -جل وعلا-، وبلغت دعوتهم جل أصقاع المعمورة في زمانهم، أو ما استطاعوا أن يبلغوه منها؟!

ثم اعلم -بُنَيِ- أن خلطَ السفهاء دائمًا في مقام أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يكمن في الفارق بين التشريع وبين التطبيق العملي، فإنا لا ننكر وقوع أخطاء من أفراد أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سواء على المستوى الشخصي أو المستوى العام، ولا ندَّعي لأحدٍ منهم

العصمة، بل هم أول من خوطب بقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

«والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم».

وقد كانوا يخطؤون بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويذنبون فيستغفر لهم الله، ويوجههم للتوبة والاستغفار، ثم يستعملهم ولا يُقَنِّطُ أحدًا منهم.

ثم بعد أن انتقل المصطفى -صلى الله عليه وسلم- إلى الرفيق الأعلى، أكمل أصحابه -رضوان الله عليهم أجمعين- جهادَهم ومجاهدتَهم، واجتهدوا فأصابوا في التطبيق كثيرًا، وأخطأ بعضهم أحيانًا، غير أنهم ما اجتمعوا أبدًا على خطأ، لا في نقل الدين ولا في التطبيق العملي له، إنما أخطأ بعضهم في التطبيق العملي بغير إجماع منهم، بل لا يزالون قائمين بينهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتى تسلم من بعدهم الراية فكان ما كان.

وكل خطأ وقع من أحدهم فإنما هو بتقدير الله سبحانه ليبتلي من بعدهم بهم فينظر كيف يعملون؟!

فأما الصالحون من أتباعهم وأتباع أتباعهم فغمروا أخطاءهم في بحور حسناتهم، ثم أكملوا مسيرتهم في تبليغ دين الله تعالى للعالمين، وأما السفهاء وأتباع إبليس فتوقفوا عند أخطاء أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فضخَّموها ونفخوا النار فيها ثم حملوهم أوزار الأمة جميعًا، يحسبون أنهم بذلك يصححون مسارًا، أو يعدلون اعتقادًا للمسلمين فيهم، وما هم إلا مجموعة من سفهاء الأحلام عجزوا عن كل خير وتغيير لواقعهم، فنصَّبوا أنفسهم قضاة يفصلون بين أمم قد خلت لها ما كسبت ولهم ما كسبوا، ولا يسألون عما كانوا يعملون!

ولو تأمل العاقل لعلم أن أقصى ما يمكنه فعله مع سير أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتاريخهم أن يستفيد من تجاربهم في تجربته -إن كان له أصلًا تجربة-، وأن يتعلم من خيرهم وما أكثره، ويجتنب أخطاءهم على قِلَّتها!

ثم يترضى عنهم أجمعين، كما ترضى الملك -تبارك وتعالى- عنهم، ومات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو عنهم راض.

كما أخبر ربنا عن الصالحين ممن جاء بعدهم فقال -تعالى-:

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر].

فإياك -بُنَي- أن تخوض فيهم مع الخائضين، وإياك أن تتجاوز قدرك فتنسى فضلهم وحقهم، واعلم أن فضلهم عليك أكبر من كل فضل ما خلا فضل الله تعالى ثم فضل رسوله -صلى الله عليه وسلم- وإخوانه من الأنبياء والمرسلين.

وقد قال -صلى الله عليه وسلم-:

«لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذَهَبًا ما بلغ مُدَّ أَحَدِهم ولا نَصِيفَه».

ثم اعلم -بُنَي- أن فضلَ أبي بكر الصديق وعمرَ بن الخطاب الفاروق -رضي الله عنهما- في أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فوق كل فضل، فهما وزيراه وصاحباه وحبيباه، وأبو بكر قبل عمر -رضي الله عنهما-، ثم عثمان وعلي -رضي الله عنهما-، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة ثم أهل بدر -رضوان الله عليم أجمعين- ثم أهل بيعة الرضوان، ثم بقية الأصحاب -رضوان الله عليهم-.

ثُمَّ اعلم -بُنَي- أنه لا تعارض عقلي أو نقلي بين إجلال أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبين إجلال ومحبة وموالاة آل بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا يضيق قلبُ مؤمنٍ بإنزال الجميع منزلتهم، كلٌّ بحسب ما كتب الله تعالى له وأخبرنا به رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

ثم اعلم -بُنَي- أن محبة الآل والصحب لا ينبغي أن تكون تابعة للهوى واختيارك وميلك، بل هو الاتباع وحده لا شيء سواه!

فمن أنزله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منزلة الصاحب والأخ والوزير وثاني اثنين في هجرته، وأخبر أنه أحب الناس إليه من الرجال، واستخلفه على المسلمين في الصلاة، لا ينبغي أن ترفع عليه أحدًا بحساباتك العقلية ولا العاطفية؛ فإن محبة أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومحبة آل بيته كذلك نابعة من محبتنا له -صلى الله عليه وسلم-، ومحبتنا له -بأبي هو وأمي وصلوات الله عليه وتسليماته- نابعة من محبتنا لربنا وخالقنا -جل وعلا-، فليس لك في المحبة إلا الاتباع، فمن أحبه الله سبحانه أحببته، وأحب الخلق إليه سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-، ثم من أحبه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحببته وفضلته كما فضله رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وعلى هذا فقس!

فإن اختلط عليك مقام أفرادهم عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فاجعلهم جميعًا في مقام واحد وأحبهم جملة، وإياك والغلو والجفاء على سواء!

فإن أقوامًا هلكوا بِغُلُوِّهم، ومثلَهم هلكوا بِجَفَائهم، والحق وسط بينهما، وهو الاتباع في المحبة!

أعود فأكرر على مسامعك -بُنَي-:

لا وجه عقلي ولا نقلي يحمل على التعارض بين محبة أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومحبة آل بيته -رضوان الله عليهم-!

وأختم -بُنَي- هذا الجزء من الحديث بتنبيهك تنبيهًا هامًّا جدًا نبهني عليه وعلمنيه عمُّك -نفحه الله بالخير حتى لا يدري أوله من آخره-:

أن موالاة آل بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومحبتهم وإجلالهم واحترامهم نابعة من محبة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- آمرًا المسلمين يومًا بموالاة من تنكر سبيل الهدىٰ، أو اتَّكأ على نسبه فعصى الله به وحارب أولياءه وخالف سنة جده -صلى الله عليه وسلم- ودينه، فموالاة آل البيت -رضي الله عنهم-

إنما هي لمن كان على سَنَنِ جده المصطفى -صلى الله عليه وسلم- وهَدْيِه، سالكًا دربَه، غيرَ مبتدع في دينه ولا ضال عنه، فضلًا عن أن يكون محاربًا له، ولا ينفعه حينئذ نسبه لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد قال رب العزة -تبارك وتعالى- وقوله الفصل:

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المؤمنون].

جعلنا الله وإياكم ممن ثقلت موازينه وأفلح يوم العرض، وكان مآله جنة الخلد، آمين.

ثم اعلم -بُنَي- أنَّ أولى الناس بحسن صحبتك والداك، وهما طريقك -بإذن الله- إلى الجنة إن أحسنت لهما ورعيت لهما حقهما، ورحمتهما في كبرهما، وشكرت لهما حسن صنيعهما معك يوم كنت صغيرًا لا تحمل عبءَ شيءٍ قد كَفَيَاكَ إياه!

وباب بر الوالدين يقع فيه الخلط بين الناس كثيرًا، خاصة في زماننا هذا الذي اختلطت فيه المفاهيم، ودَرَسَتْ معالمُ السنن، وضاعت الأصول عند كثير من الناس -إلا من رحم ربي-.

والمصيبة في هذا الباب مما عمَّتْ به البلوى، خاصة مع ضياع الأصل الذي يتحاكم إليه الناس، فصار حكم الشرع فيه وسيلة لأخذ الحقوق، لا لبذل الواجبات، سواء كان من جهة الآباء والأمهات، أو من جهة الأبناء!

وهذا خلط شديد وفساد كبير!

فإنَّ الأصلَ أن يكون الشرعُ حاكمًا على الجميع، والدًا كان أو ابنًا!

وإنَّ من حقوق الابن على أبيه أنْ يُرَبِّيَه ويعلمَه كيف يكون رجلًا، ويعينَه من صغره على الاعتماد على نفسه، وأخذ القرارات وتحمل عواقبها، والبحث عن حلولٍ يواجه بها عقبات حياته، ثم يوجهه فيها إلى الطريق الأمثل الذي يرضي الله -سبحانه وتعالى- عنه، ولا يكون ذلك إلا بأن يدرك

الوالد أنه استُودِع أمانة يُسأل عنها بين يدي ربه -جل وعلا-!

وكذا الأمهات، والمصيبة في بعض أمهات زماننا أعظم من المصيبة في الآباء!

فسلاح الابتزاز دائمًا مرفوعٌ على الأبناء، وفرض آرائهم على الأبناء وخاصة الذكور شديد، وسَلْخهم من رجولتهم، وكسر كل ذرة رجولة فيهم، وتسلطهم عليهم بحجة بر الوالدين ووجوبها، وهذا من أعظم الفساد وإخراج أجيال من أنصاف الرجال الذين لا يحسنون بناء أسرة، ولا اتخاذ قرار ولا تحمل عواقب، ولعل هذا يفسر لك سبب فساد كثير من بيوتات الشباب حديثي الزواج، وسرعة الطلاق وانعدام المروءة في الزواج والطلاق على سواء!

وإنا لله وإنا إليه راجعون!

ولا تظنَّنَّ -بُنَي- أني سقت لك عيوب آباء وأمهات زماننا لأخلصك من تبعة مخالفتهما أو عقوقهما، وإنما سُقْته لك لتعلم الانفصال بين تكليفهما الذي يسألان عنه يوم

القيامة، وتكليفك الذي تسأل عنه.

فإنَّ الوالدين وإن ظَلَمَا أو جَارَا، أو جَنَّبَا أحكامَ الله وشريعته في الذي عليهما تجاهك، فإنه لا يُخَلِّصك ذلك من تكليفك تجاههما وحسن صحبتهما وبرهما ما استطعت إلى ذلك سبيلًا في غير معصية، فلا ترفع صوتك عليهما، ولا تباغتهما بتخطئتهما فيما ينصحانك به بحجة أن الزمان غير الزمان والجيل غير الجيل؛ فإن هذا من سوء الأدب معهما، بل خذ نفسك باللين لهما، والرحمة والرأفة بهما، وناقشهما وفهِّمْهما وجهةَ نظرك، فإن أبيت إلا أن تفعل ما ارتأيته صوابًا -وإن خالف نصيحتهما- فكن رجلًا يتحمل عواقب قراره، ولا تأخذ قرارًا يخالفهما ثم إذا ثبت لك خطؤه ألقيتَ بَلْوَاكَ في حِجْرِهما تطلب منهما أن يحملا عنك ما جنيت؛ فليس هذا من المروءة ولا البر في شيء، وموافقتهما من أول الأمر وإن خالف رأيك درجة عالية من البر قَلَّ من يحسنها.

وإن تبين لك حسنُ قرارك وصوابُه فإياك أن تعود عليهما بالأذى أو التعالي أو بيان دقتك في اتخاذ القرار وصواب نظرك؛

فإنه ربما ينقلب عليك بالسوء لا لخطئه، وإنما بشؤم المعصية والعقوق!

ثم اعلم -بُنَيَ- أنك عما قريب تكون في مقام والديك لأبنائك إن شاء الله، وكما تدين تدان، فالبر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديَّان لا يموت!

فإن لم تجد وازعًا في قلبك يمنع عن العقوق، فتذكر أنك عما قريب تكون مكانهما، فما تكرهه لنفسك فاكرهه لهما، هداك الله إلى سواء السبيل!

واعلم -بُنَيَ- أن الأصل الذي تتحاكم إليه في علاقتك بوالديك، بل والناس جميعًا هو شرع الله سبحانه؛ فإن استغلق عليك شيء فيما بينك وبينهما فاسأل أهل الذكر والعلم فيما يجب عليك في موقفك وما يستحب وما يكره وما يحرم، ولا تأخذ كلامًا مجملًا من أحد، فإن كثيرًا من أهل زماننا من المنتسبين للفتيا، يفسدون أحيانًا من حيث لا يشعرون، فيحملون الناس بفتواهم على أعلى درجات الكمال

في البرِّ دون أن يستفيض أحدهم في السؤال عن حالة ذلك الذي يجلس أمامهم؛ فيستسهل المفتي قول: أطع أباك وأمك، دون أن يدخل في تفاصيل الأمر، وهو والله ظلم شديد يؤدي أحيانًا لفتح باب من الشر عظيم، بابٍ للعقوق أشد، وليس من رأى كمن سمع!

فإذا سألت عالمًا فاجتهد في توضيح سؤالك وبيان ما تريد أن تعرفه، فَسَلْ عن أحكام الشرع ولا تقبل بغيرها جوابًا أوَّلًا، فإن زاد بعد ذلك ونصَحَك بالأعلى درجة فلك أن تقبل أو تدع، ولكن بعد أن تعلم الواجب من المستحب، والمكروه من الحرام، ثم تجتهد في النظر في حالك وما يصلحك فتجتنب الحرام والمكروه، وتجتهد في أداء الواجب، فإن استطعت أن ترقى لمستحب من درجات البر العليا فافعل؛ فإن لم تستطع فلا أقلَّ من إتيان ما يجب عليك، واجتناب ما حرم وما كره لك!

والله يهديك ويسددك!

هذا، واعلم -ولدي- أن الله -سبحانه- ما قَرَنَ الوالدَيْنِ

به -جل وعلا- إلا لعظيم شأنهما فقال -تبارك وتعالى-: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ... ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وذلك؛ لأن الله سبحانه هو خالقك ومُوجِدك على الحقيقة، وهما سبب وجودك بإذن الله وقدره.

فكان حقهما عليك من أعظم الحقوق وأوجبها، فإياك أن تفرط في واجباتك تجاههما فتهلك!

ثم اعلم -بُنَي- أن ما لا يقبل خلافًا في برهما هو ما يتعلق بهما، ويوجبانه عليك أو يطلبانه منك، فإنهما أولى الناس بك، وما يطلبانه منك لأنفسهما مقدم على حاجتك، فلا يصح أن تأكل وهما جائعان، ولا تلبس وهما عريانان، ولا تستظل بسقف بيت وهما في دار مسنين أو لا يجدان المأوى، فهذا والله من أعظم العقوق وأقبحه!

وكذا لا ينبغي لك أن تقدِّمَ عليهما أحدًا، ولدًا كان أو أخًا أو أختًا أو زوجًا، فضلًا عن أن تقدم عليهما أصحابك وأصدقاءك، وهذا مما عمت به البلوى في هذا الزمان، فإنك ترى

الأولاد والبنات يتركون مجلس آبائهم وأمهاتهم ويعتذرون عن قضاء حوائجهم بحجة مواعيدهم مع أصحابهم وهذا من عظيم الخسران، وسوء الأدب مع الوالدين، ولو أدرك الأبناء أن الصاحب الذي لا يعينه على طاعة الله -سبحانه- في والديه وبرهما، فليس بصاحب ولا صديق، وأن لن تطول صحبته طويلًا، وكذلك لو علموا أن الأصحاب يتغيرون يومًا بعد يوم، وقليل منهم من يبقى في دائرة الصحبة بانقضاء الأيام؛ لعلموا قدر غَبْنِهم إذ قدموا الذاهب على الباقي لهم، وهما الوالدان!

وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله في ما يتعلق بالصحبة، والله المستعان.

فإذا استقام لك بر والديك وعلمت وجوب حسن صحبتهما مهما فعلا، ثم علمت أن ما يتعلق بهما وبحاجتهما وحياتهما لا ينبغي أن تقدم عليه شيئًا، ثم تعلمت كيف تجمع بين اجتهادك في برهما وحسن صحبتهما وكذا اتخاذ قراراتك فيما يتعلق بحياتك أنت مع تحمل عواقب قراراتك وعدم تحميل والديك نتائج أفعالك، مع أخذ آرائهما بعين الاعتبار دائمًا،

فهما أصدق الناس في نصحك وإن خالفهما الصواب أحيانًا، ثم اجتهدت في ذلك كله واستقام ما بينك وبينهما، فانتقل إلى لحمك ودمك وأقرب الناس إليك بعد والديك وهم إخوتك!

أولـئك الذين لا ينبغي لك بحال أن تعاملهم بالمثل، بل عاملهم دائمًا وأبدًا بالإحسان، واجتهد ما وسعك في إرضائهم والتودد إليهم والاقتراب منهم، وكن دائمًا لهم الناصح الأمين، والمرآة التي يرون فيها أنفسهم، وكذلك اقبل منهم نصحهم، ولا تنتظر منهم مهما بلغْتَ من درجات العلم أو الغنى أو السؤدد أن يعظموك كما يفعل الناس؛ فإنك لا تزال في أعينهم أخوهم!

وهي خلة أعظم من غيرها -لو تعلم-!

هذا -بُنَي- هو الأصل فيما بينك وبين إخوانك، وحتى لا يكون كلامي مثاليًّا عاطفيًّا؛ فإني أنبهك لحالات -وأعيذك وإخوتك بالله منها- قد تفسد ما بين الإخوة وتقطع الصلة، وهي كثيرة منتشرة في زماننا:

وأولها أن تدخل الدنيا بين الإخوة فتفسد عليهم قلوبهم،

فيتحاسدون ويتباغضون ويأكل بعضهم حقَّ بعض، وهذه من أعظم آفات زماننا في علاقة الإخوة ببعضهم!

فإن حدث -أعاذك الله- فإياك أن تعلم لنفسك حقًا أجراه الله لك ثم تتركه حتَّى يُقَرّ ويعترف به، ثم بعد ذلك لك الخيار أن تأخذ حقك، أو تحسن فتتألف قلوب إخوانك!

فإن علمت أن ليس لك حق فيما بينك وبينهم وأفسد الشيطان به بينكم، فإياك وحقوق إخوانك؛ فإنك تقتطع لنفسك قطعة من جهنم!

واعلم -بُنَي- أنه شتان بين العفو عند المقدرة، وبين العفو مع العجز، فالأول قوة وخير، والثاني ذِلَّةٌ ومهانة!

كذلك مما كثر في هذا الزمان بين الإخوة -وإنا لله وإنا إليه راجعون- أن يزداد سوء العلاقة بينهم إلى أن يتعمد بعضهم إيذاء بعض بالكلمة أو الفعل، فإن كان الأذى متحققًا وحاولت ما وسعك أن تمنعه وتقطع أسبابه فلم تفلح، كان لك أن تنصرف عن علاقة تفسد عليك قلبك ولا يأتيك

من ورائها إلا الأذى المادي والمعنوي، فإن استطعت أن تبقي بينكم السلام دون أن تنقطع كل الحبال الممدودة بينكم، ولا يكون ذلك سبيلًا لفتح باب الأذى مرة أخرى فافعل!

فإن لم تستطع فأغلق عليك بابك، وليسلم إخوانك منك وتسلم من أذاهم!

وهذا لا يكون إلا بعد استفراغ الوسع في نزع العداوة وإصلاح ذات البين ورد الحقوق وما إلى ذلك، والله يثيبك على قدر نيتك وسعيك في الخير!

ثم اعلم -بُنَي- أنَّ رَحِمك الموصولة سبب من أسباب بركة عمرك وسعة رزقك، فلا تقطعنها عامدًا لأي سبب وتحت أي ظرف، فإن حُملْت على ذلك حملًا لأذى أو أكل حقوق أو نحوها، فاجعل بابك مفتوحًا لمن أراد أن يعتذر عن أذى، أو يرد حقًّا، أو يتحلل من جَوْرٍ.

ولا تغلق بابك أبدًا دون رحمك!

واجتهد في صلة رحمك، أعمامك وعماتك وأخوالك

وخالاتك، ثم أبنائهم من الذكور، واجعل بينك وبين الإناث ساترًا أو حاجزًا، ولا يغرنك قول بعض الجهال: هذه أخته أو مثل أخته، فمن حلَّ لك نكاحها لا تكون أختك بحال؛ غير أن لها حقًا عليك زائدًا وهو الرحم؛ فاجعل اطمئنانك عليها وصلتها من طريق أبيها أو أمها أو إخوانها الذكور، وما بينك وبينها من كلام أو صلة فبقدر محدود جدًّا، لا يجاوز حد السؤال والصلة.

ثم لا تحصر صلتك بعموم رحمك في السؤال والسلام، بل تفقَّد أحوالهم ولا تحوجن أحدًا منهم لذل السؤال، بل كن مبادرًا دائمًا في قضاء حوائجهم، والسعي على مصالحهم، وإعانتهم بالمال والوقت والجهد والعلم، ولا تبخل عليهم بشيء وهبك الله إياه.

ولا تنتظر من أحد منهم مقابلًا، بل افعل الخير لهم عبوديةً لربك والتماسًا لمرضاته، وسعيًا لجنته، والله سبحانك يعينك ويتولاك برحمته!

واعلم -بُنَيَ- أن الكلام في كل باب من تلك الأبواب يطول جدًّا لو أردنا تفصيله وبيان إشكالاته وحلولها؛ لكني أردت فقط أن أوقفك على أصوله وما ينبغي عليك فيه، ثم أحيلك على أصلين لا تعدل عنهما أبدًا:

أما الأول: فتذكر أنك تعامل الله في والديك والأقربين ثم بقية الخلق، فلا تخن الله فيهم أبدًا!

وأما الثاني: فاجعل سؤال أهل العلم والديانة ديدنك في كل ما استشكل عليك، فإن الله سبحانه هو القائل: ﴿... فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]

وكفى بامتثال أمر الله بركة وهداية وسدادًا!

وأختم هذا القسم بامرأة تكون لك -إن شاء الله- من أقرب المقربين، ويكون لك منها أعز الناس على نفسك، ألا وهي زوجك وأولادك -إن شاء الله-!

اعلم -ياقرة عين أبيك- أن الزواج مسؤولية عظيمة قبل أن يكون سكنًا ومتعة!

فأجلُّ ما في الزواج -بُنَي- هَمُّه!

وأعظم ما فيه أثره!

وأعذب ما فيه نظرة عتابٍ عند شوق حائر!

وأجمل ما فيه نظرة رضًى بعد جهد شديد!

أي -بُنَي-: أجَلُّ ما في الزواج أن تحمل هَمَّ ضعيف -جِبِلَّةً- صار منك وأنت منه، ثم يأتي منه ذريةٌ ضعافٌ تخاف عليهم، وتتقي الله فيهم، وتقول قولًا سديدًا!

أجَلُّ ما فيه أن صرت لهم -بعد الله- موْئلًا، فصار وجودك بالنسبة لهم الدنيا وما فيها، وصار وجودهم في حياتك كذلك!

وأعظم ما فيه ذلك الأثر الذي تتركه فيهم من معرفة بخالقهم وربهم، أن تجتهد في نفسك حتى تكون لهم قدوة تدلهم على طريق الجنة!

أن تترك خلفك ذرية يحملون همَّ دينٍ لم يعد له رجال -إلا من رحم ربك-!

وأعذبُ ما فيه تلك النظرة التي تراها خلف حجاب ساتر أن قد كان البيت فارغًا بدونك، ولم يكن له طعم إلا بوجودك، فلا تتأخر علينا مرة أخرى فإنا في شوق إليك!

أن تكون في بيتك نسمة حانية حتى يشتاق إليك أهل بيتك صغيرهم وكبيرهم، حتى الجماد فيه يشتاق إليك!

وأجمل ما فيه بذل الجهد في السعي على أهلك سعي الرجال، حتى إذا ما كنت بينهم رأيت في أعينهم نظرة رضىً أن يكفينا أنك بيننا، ثم ما بعد ذلك فهو الخير من الله تعالى أجراه لنا على يديك، فجزاك الله عنا خيرًا!

أي -بُنَي- ليس الزواج ورودًا وأغانيَ تصف علاقات لا معنى لها جعلوها حبًّا، وإن كان بعض الورد والهدايا لا يضر.

إنما الزواج علامَةٌ فارِقَةٌ بين (أنا ابن أبي وأمي)، وبين (قد أثمر زرعكما يا والديّ والآن صرت رجلًا)!

ثم اعلم -بُنَي-أن اختيار الزوجة توفيقٌ إلهيٌ بَحْتٌ، لا يتوقف على خبرتك ولا حسن معرفتك بالناس أو النساء،

ولا يغرنك معرفتك بالنفوس البشرية أو ذكاؤك أو فهمك؛ فإنا لا نعلم أحدًا اتَّكل على عقله وخبرته و ذكائه في هذا الباب خاصة إلا وقد رأى من المنغصات والمفسدات ما استحالت به حياته إلى عذاب مقيم، وإن اجتهد في إظهار خلاف ذلك!

فإن أنت أقبلت على اختيار الزوجة فاجعل صلاة الاستخارة أصلًا أصيلًا في كل خطوة تخطوها، وكِلِ الأمر كله لله فهو نعم الوكيل!

ثم إذا أردت أسبابًا تعينك -ظاهرًا- على الاختيارفإني ناصحك بثلاث نصائح لا أزيد خشية الإطالة:

١- دين المرأة ومعرفتها بربها هو أصل جمالها وصلاحها وتقواها، وحسن خلقها واستقامة فطرتها هو متمم جمالها، ثم لا يبقى لك إلا أن تستريح عينك لصورتها الظاهرة، وترتضيها وتقر عينك بها فتوهب بها العفاف.

٢- ولكن اعلم -بُنَيَ- أنك لا تستمتع من المرأة بشيء من ذلك حتى تكون في عينها أكبر منها في عينك، فإن رأتك كبيرًا

وملأْتَ عليها قلبها وعينها، وشعَرَتْ منك برجولة وحكمة ورأي سديد وتحمل مسؤولية وحرص وطمأنينة، ورأيْتَ أنت ذلك كله في عينها حقيقةً لا توَهُّمًا، وكانت من أهل ما ذكرت لك قبل، فهي هي، نِعْمَت هي!

٣- واعلم -بُنَي- أن المرأة والرجل يشتركان في الأصل وهو جنس الإنسان ويختلفان في النوع، وقد أوجزها الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فلا والله ما ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة، وإنما جاء بالعدل بينهما بما يوافق الجبلة الجسدية والفطرة الأخلاقية!

فإذا علمت ذلك -بُنَي- فاعلم أنه من ظُلْمك لنفسك وظُلْمك لزوجك أن تجعل معاملتك للرجال مقياسًا لمعاملتها، فتحاسبها على ما تحاسب به إخوانك وأصحابك، وهذا ظلم عظيم!

فإنما خلقت المرأة من ضلع أعوج، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه؛ فإن أنت ذهبت تقيمه كسرته، فاستمتع بها

على ذلك العوج ما لم يكن في دين أو خلق، فتحمل منها ما لا تتحمله من الرجال، وتلمس ما يرضيها كأنثى فافعله، واجعل لسانك رطبًا بذكر محاسنها وجمالها، وامدح لها كل عمل صالح، وأنزلها منزلتها، وحثها على الخير، وشاركها الرأي والمشورة، واسمع منها وصاحبها بالمعروف، وانصرف عن كل تخنث ظهر في أهل هذا الزمان مما لا تدري به أي الطرفين الذكر وأيهما الأنثى، فإنك توشك أن تسقط من نظرها إن شعرت لحظة أنك كإحدى صديقاتها أو أخواتها!

وأختم هذا القسم -بُنَي- بأن أوصيك بما أوصاني به جدك -رحمه الله ورضي عنه- أن قال ما معناه: إذا أقبلت على الزواج واخترت من ترضاها لك زوجة، فقُمْ ببيتك من أوله إلى آخره، وإياك وعادات أهل هذا الزمان، فإنَّا وإن لم نقل بحرمتها غير أنها تفسد عليك حياتك من حيث لا تدري، فلا تشارك امرأتك وأهلها في شيء من تجهيز بيتك؛ فإن فعَلَتْ فإنما هي هدية يهاديها بها أهلها، لا هم ملزمون بها ولا أنت ملزِمهم بشيء منها، واجتهد على قدر طاقتك في توفير ما تحتاجونه

في بيتِكُما في أول الأمر، ثم اجتهد في تتميم ما تحتاجونه بعد ذلك شيئًا بعد شيء.

فإن تمَّ لك ذلك فنفقة بيتك وأهلك واجب عليك، وما تنفقه زوجك من حُرِّ مالها فصدقة تؤجر هي عليها، وإياك أن تطالبها بشيء من ذلك قَطُّ ولو كنت فقيرًا معدمًا، وكانت هي من الثَّراء بمكان.

ثم اعلم -وأسأل الله ألا تحتاج تلك النصيحة- أنه إن تخالفت الطباع واستحالت العشرة ووجب الفراق، فإياك ثم إياك أن تكون من أهل النذالة والخِسَّة فتجلس لها مجلس العداء، وتحاسبها بالدرهم والدينار، فليس هذا حال أهل المروءة والرجولة؛ إلا أن تكون هي ممن لا يرعى لله حقًّا، ولا تتقي الله في عِشْرة وصحبة، فليس لها إلا ما كتب الله لها، ولا يمنعك بُغْض صفاتها أن تبذل لها ما كتب الله لها، وما سوى ذلك -بُنَيَ- فالإحسان الإحسان!

والله يصلح حالك ويهديك سبيل الرشاد!

ثم اعلم -بُنَيَ- أخيرًا:

أنه لا تعارض أبدًا بين بر الوالدة، وبين حسن صحبة الزوجة وأداء حقوقها، وإنما التعارض يأتي دائمًا من سوء فهم الرجل لطبائع العلاقات وانفصال الجهات!

فإنَّ لأمِّك عليك حقًّا فيما يخصها هي، وما تطلبه منك لنفسها، ويجب عليك برَّها فيه!

ولزوجك عليك حقًّا فيما يخصها هي أيضا، وما تطلبه منك لنفسها وبيتها، ويجب عليك القيام بحقها؛ فأيُّهما خَلَطَتْ فوضَعَتْكَ موضعَ المقارنة، فإياك أن تنساق معها ومع وساوسها؛ فإن غيرة الأم شديدة، وكذا غيرة الزوجة، وذكرها بالله، وعرِّفها الفارق بين الزوجة والأم، وأن لا تعارض بينهما، وأنك لست في موضع مقارنة بينهما لتختار إحداهما، وأنَّ بغضَكِ لها أو غيرتَكِ منها وكذا العكس لن يمنعني من القيام بحقكما، على أن لا يكون بينكما تواصلٌ ما دام يفضي إلى السوء!

ثم بِرَّ أمك بما تستطيع!

وأدِّ حقَّ زوجك عليك!

والله يعيذك من كيد النساء!

وأختم هذا الفصل -بني- بكلمات عن تربية الأبناء؛ لعلها تنفعك يوم تصير أبًا -إن شاء الله-:

اعلم -بني- أن تربية الأبناء متعلقة تعلُّقًا وثيقًا بتربية الرجل نفسه أولًا. فكلما زادت معرفتك بنفسك، واجتهدت في تهذيبها وتربيتها، زادت معرفتك بالنفس البشرية عمومًا، وكيفية التعامل معها وتهذيبها وتقويم سلوكها وتطهيرها من أمراضها، وكلما زاد جهلك بنفسك، وغفلت عن تربية نفسك، فلن تنفعك حينها نظريات التربية القديمة والحديثة قاطبة!

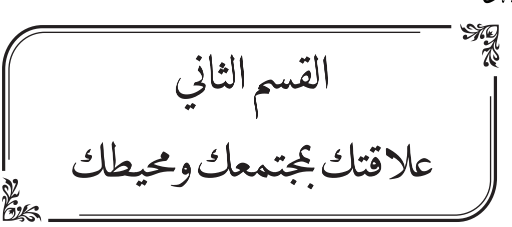
ثم اجعل سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- وسير أصحابه -رضوان الله عليهم- أصلًا تستنبط منه سبل تربية الرجال، وكذا النساء الصالحات.

ولا تقف طويلًا عند نظريات الغرب التربوية، ولا تزد على الاطلاع عليها والاستفادة منها بقدر ما يوافق ديننا وتعاليمنا

وقيمنا -إن كان ثمة استفادة-، ولا تجعل أبناءك حقل تجارب لنظريات الغرب الكاسدة الفاسدة التي يخرجونها اليوم ثم ينقضونها غدًا بغيرها، فأمانة التربية لا تتحمل التجارب!

والحمد لله رب العالمين.





القسم الثاني
علاقتك بمجتمعك ومحيطك

وهذا القسم يندرج تحته أنواع، ولو أردنا التفصيل فيه لخرج الكتاب عن المراد منه، فأكتفي منه -بُنَيَ- بقواعده العامة، ثم التفصيل فيما تمس له الحاجة عندك وعند إخوانك من المسلمين.

اعلم -بُنَيَ- أن الأصل في علاقات هذا القسم الاختيار، وليس ثَمَّةَ اضطرار فيه، ولا ينبغي لعاقلٍ أن يجعلها في حكم المفروض عليه فيلزم نفسه بما لم يلزمه الله به، وبما يفسد عليه قلبه ودينه، فإن علمت ذلك -ولدي- فاعلم أن اختيار الرفقة والصحبة إنما يُبْنى على ما يقربك من الله ويشغلك به، ويذكرك ما نسيت من طاعته، ويعينك على مرضاته، وإلا فهو عليك وَبالٌ، وعلى دينك خطرٌ، وعلى قلبك تنغيصٌ وفسادٌ!

فإن همَمْتَ باختيار صاحب لك فاختر من يعينك على الطريق إلى الله، ويحثك على طاعته، ويشاركك السعي

في مرضاته، وإياك وصحبة المتنكِّرِ طريقَ ربِّه، والمستهينِ بفرائضه وسننه، والمتجرئ على معصيته؛ فإنَّ مخالطتَه شؤمٌ وطريقُ فسادٍ!

فقد قال -صلى الله عليه وسلم-:

«لا تصاحب إلا مؤمِنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ».

ولا يغرنَّكَ حسنُ منطِقِه ولا خِفَّةُ ظِلِّه، ولا شجاعته أو رجولته الظاهرة في بعض المواقف، فما كان لله سبحانه وحده دام واتصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل، ويوشك أن تنفصل صفاته تلك في معاملته لك إذا عارضت مصلحته، أو أزعجته نصائحك، أو بان له فضل صحبة غيرك بمقاييسه الدنيوية، فلا يبقى في قلبك سوى حسرة وندامة على صحبة لم تدم أو غُدر بك فيها، ولم يكن خطؤه هو في بادئ الأمر فخسته بادِيَة، وإنما كان سوء اختيارك!

وقد قال -صلى الله عليه وسلم-:

«الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

ثم إياك -بُنَي- وصحبة المنَّان خاصة!

فإذا رأيت واحدًا يمُنُّ على أحد أصحابه بينك وبينه أو أمامك ففارقه، وفر منه فرارك من الأسد!

فمن يمنُّ على غيرك يوشك أن يمُنَّ عليك!

وإذا أردت لذلك شاهدًا فانظر حال من تشرفوا بلقب (الصحابة) لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وانظر إلى حال أحدهم وهو سيدنا حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَة -رضي الله عنه- يوم حدث منه ما حدث، فلما سأله رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لم يبادر بتعداد مِنَنِه، ولا اعتذر بسابق عمله، وإنما قال: ما فعلته ردة عن ديني، ولا رضًى بالكفر بعد الإيمان.

فعذَرَه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، واعتذر عنه بحسن عمله وبلائه في غزوة بدر؛ لأنَّ الصاحب لا يرى لنفسه مِنَّةً على صاحبه.

وهذا حال الأنصار وهم وقوف بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهو يُعَدِّدُ لهم مِنَنَ الله ورسوله عليهم، فلما سألهم أن يجيبوه سكتوا.

وكلما قرر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فضلًا ومنةً، ما كان جوابهم إلا أن قالوا:

الله ورسوله أَمَنّ، الله ورسوله أمنّ!

ثم قارن ذلك بحال الأعراب الذين ما شرفت قلوبهم بالإيمان، وإنما ركنت إلى ما تقيم به إسلامها فقط، فقال عنهم ربنا -جل وعلا-:

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ

قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ

بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ

إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات]

فتأمل ذلك، وتأمَّل حال صحبتك، فإنك إن تشتد على

نفسك في مقاييس الصحبة خير لك من إنفاق عمرك أو بعضه في التحسر على من قربتهم إليك فكان منهم ما كان.

ثم اعلم -بُنَي- أن كل صحبة تمنعك عن قول الحق أو الجهر به؛ مجاملة لهم، أو خشية أحدهم، أو لأن أحدهم له عليك يدٌ لم تكافئه بها؛ فاعلم أنها صحبة فاسدة ترديك، وتحملك على التحلل من كلمة الحق رويدًا رويدًا، فلا تتركك إلا جبانًا عن الجهر بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكل من كان في محيطك!

ثم إياك والمجاملة في ذلك؛ حتى إن كان نصحُكَ أحدَهم هو آخر ما يسمعه منك، وآخر ما يخرج من فيك له!

ثم اعلم -بُنَي- أن زملاءَ عملك رئيسًا كان أو مرؤوسًا لهم عليك حقوق، ومنها:

أن تنصح لهم بما تراه صوابًا، فهذا واجبك بين يدي ربك، ولو أدى ذلك إلى غضب أحدهم أو حنقه عليك، وإياك وكتمان حق تراه.

ولاتعلق قلبك قط بمخلوق، ولا يخدعنك شيطانك فيوهمك أن أحدهم يرزقك، فإن الرزاق هو ربك وحده لا شريك له.

وتعلم -بُنَيَ- أن تطلب حاجتك بعزة نفس فإن الأمور تجري بمقادير.

وكذلك: ابذل علمك وخبرتك لكل أحد، ولا تضِنَّ بها إلا على مستخدم لها في السوء والشر أو ضرر الناس، أو من يزهد فيها وتضيع وقتك وجهدك معه فيما لا طائل من ورائه.

وأيضًا: تأدب مع من هو فوقك ومن هو دونك، وزد تواضعًا مع من هو دونك، وأما قرينك فعامله بما تحب أن يعاملك به -وإن لم يفعل هو-، وانصح له بما تنصح به نفسك.

۞ قاعدة هامة:

إياك وشكاية ربك لمخلوق، صاحب كان أو رئيس عمل أو والد أو قريب!

واحفظ سرك في نفسك لا تبح به لمخلوق، فإن أبيت إلا كشفه فإياك أن يسبق به لسانك إلا لربك!

كان سيدك وسيد أبيك -صلى الله عليه وسلم- إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

أتدري -بُنَي- لم كان يفعل ذلك -صلى الله عليه وسلم-؟

أرأيت لو أن شيئًا أهمَّه وأحزنه فمن الذي يملك قلبه ويستطيع أن يحول حزنه إلى فرح وانشراح صدر سوى الله؟!

أرأيت لو أن له حاجة يرجو أن تقضى فمن الذي يملك قضاءها سوى الله؟!

أرأيت لو أنه في حيرة من أمره ولا يدري كيف يختار فمن يدله على خير الأمور وييسرها له سوى الله؟!

أرأيت لو أنه وأنه وأنه، فمن الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه سوى الله سبحانه؟!

فلِمَ يذهب لغيره فيشكو همه أو يطلب حاجته أو يستشيره فيما حَيَّره أو يبثه نجواه، وباب الملك القادر على كل شيء مفتوحٌ لا يوصد، وهو الذي يستر ويقضي الحوائجَ ولا يُعَيِّر، وغيره ضعيف عاجز لا يملك من أمر نفسه شيئا فضلًا عن أن يملكه لغيره!

فالزم باب ربك -بُنَيَ- ولا تبُحْ بسرِّك إلا له، ثم إذا أخرجت مكنونَ صدرك بين يديه، فلا يضرك حينها إن تعبدت لله -سبحانه- بطلب المشورة من إخوانك في أمرك، لا اعتمادًا عليهم، وإنما امتثالًا لأمر ربك، فربما أجرى لك الخير على لسان أضعف عباده!

فاجعل سجودك باب بث شكايتك ونجواك للعزيز القدير -سبحانه-!

والحمد لله رب العالمين.

وأختم هذا القسم فأقول:

إذا لازمت أحدًا من الأصحاب واخترته رفيقًا ومؤنسًا فاحفظ له حقَّ الصحبة من حفظ سره، والنصح له، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وإعانته في السراء والضراء بالمال والجهد والوقت، فإن رأيت منه بعد ذلك ما لا يسُرُّ، أو تغير أوتبدل فإياك والفجر في الخصومة، واجعل صدرك مقبرة سره، وإياك والتشكي والغيبة، فإنها كما -ذكرت لك

في أول كلامي- علاقة اختيارية!

فإما أن تعاتب صاحبك وتصطلحا، أو تشكو له هو ما رأيت منه وتنصح له كما كنت تنصح له!

وإما أنك اخترت إنهاء تلك العلاقة لما لَحِقَكَ من أذى، فأمسك حينها عليك لسانك، وفارقه بالمعروف، ولا تذكره إلا بالخير، ثم ارحل وأبق له حق السلام، واجعل أخوة الإسلام جامعة لكما، حتى وإن انقضت الصحبة، وسار كل منكما في طريقه!

فإن كان الضرر منه أكبر من أن تعفو وتسامح وتتجاوز عن خطئه وتنقضي الصحبة على هذا القدر، فادّخر ذلك ليوم تشخص فيه الأبصار، ويقضى بين الخلائق فيه بين يدي العزيز الجبار!

والله يهديك رشدك ويعصمك من الزلل والغيبة وكبير الذنب وصغيره، اللَّهُمَّ آمين.



القسم الثالث
علاقتك بأُمَّتك المسلمة في كل مكان

اعلم -بُنَي- أن كل مسلم موحد على وجه الأرض له حق عليك بالدعاء والنصرة والدفاع عنه والانتصار له، ودفع الأذى الذي يلحق به، وموالاته ومحبته بقدر إيمانه!

ونحن إذ بلغ بنا الضعف والهوان مبلغه، وصرنا إلى حال لم يمر بأمة الإسلام قبلُ، وأبوك إذ يزعم -بُنَي- أنه كتب ما مَرَّ معك من أبواب بمداد قلبه وفكره، ويرجو أن يكون قد أخلص لله فيه، ثم يرجو أن يكون قد نصح لك بما يعتقده ويشعر به ويمليه عليه دينه؛ فإنه لا يزعم أنه يملك حرفًا واحدًا تحت هذا الباب حقيقةً لا ادعاءً، ولا يزعم أنه يستطيع أن يكتب شيئًا فيه شعر به وخالط قلبه، وجرى من فكره وعقله وقلبه مجرى الدم، سوى حديثين لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أذكرهما لك ثم أَهَبُ لك هذا الباب تُتِمَّه إن لم يتمه يومًا أبوك، عساك أن تكون أصلح حالًا من أبيك

وأعلم وأفقه وأورع وأقرب إلى الله منه، اللَّهُمَّ آمين.

قال -صلى الله عليه وسلم-:

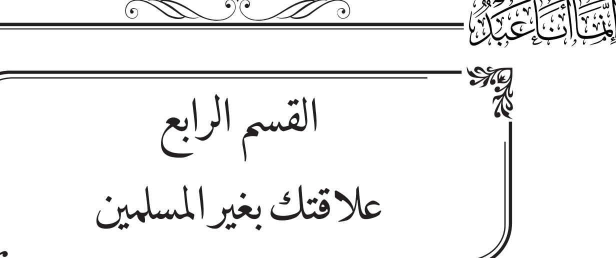
«من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق».

وقال -صلى الله عليه وسلم-:

«إذا تبايعتم بالعِينَة، وأخدتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد: سلَّط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم».

وإنا لله وإنا إليه راجعون.





القسم الرابع
علاقتك بغير المسلمين

اعلم -بُنَيَ- أنَّ الأمم المنتصرة هي التي تكتب التاريخ، وتضع قواعدها وقوانينها ليسير الجميع عليها، وتفرض هيمنتها بفرض تشريعاتها على جميع البشر، ثم تهاجم كل من يريد أن يتمسك بعقائده وتشريعاته بحجة تأخير ركب الحضارة وعدم مجاراة الواقع، والجمود والتصلب والرجعية؛ فإذا عجزوا عن حمله على التخلي عن عقائده وتشريعاته وَصَموه بالإرهاب أو نحوه ليستبيحوا دمه وماله وأرضه وأهله، ثم يرتكبون كل الفظائع والبشائع بدعوى الانتصار للحضارة والتقدم، وما هم إلا همج رعاع تسلطوا على المسلمين بذنوبهم لا غير!

وإن تعجت -بُنَيَ- فعجب لأشكالٍ ممسوخة من بَني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا تماهوا مع الكفر وأهله، وانبطحوا لكل ما يأتي من الغرب، قاطعين الصلة بأسلافهم، متبرئين من أمتهم وتراثهم، يزعمون التجديد ومواكبة الواقع، فيذوبون فيهم

كما يذوب الملح في الماء، ثم يتحولون إلى صفهم فيهاجمون بني جلدتهم ويتهمونهم بكل نقيصة، ولا تتعجب -بني- إن رأيت أباك ممن يرميه هؤلاء بالنقائص؛ لمخالفته لهم وكتابة ما لا يروق لأمثالهم، ثم لا يجدون عليه ردًّا إلا التشنيع، فأمثال هؤلاء في التاريخ -بني- كثير، غير أنه لا تنقضي دولة، وتختم صفحة من صفحات التاريخ إلا ويكتبون في سير أعلام الملاعين وأهل الخسة والنذالة، أولئك فاحذرهم وحذر الناس من شرورهم، والله يعصمك منهم ومن أشباههم!

ثم اعلم -بُنَي- أن مشكلة المسلمين الكبرى في هذا الزمان ليست مع جُلِّ أفراد غير المسلمين، وإنما هي مع رؤوسهم وكبرائهم ممن حاربوا المسلمين واستغلوا جهل شعوبهم بما حولهم من الدنيا ليستخدموهم وأموالهم وأبناءهم في حرب المسلمين، واستئصال شأفتهم في كل بقعة يظهر فيها اعتزاز بالدين، وتمسك بتشريع رب العالمين، ولا يبرئ ذلك تلك الشعوب الجاهلة، كما لا يبرئ أمثالهم من شعوب أمتنا المسلمة ممن عقولهم في آذانهم يُسَيِّرُونَهم كيفما يشاؤون،

تكفيهم آلة إعلامية ضخمة لتغير اعتقادهم إلى شيء في الصباح، ثم تحوله إلى نقيضه في المساء، مَثَلُهم كمثلِ من قال الله تعالى فيهم:

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة].

فعليك -بُنَي- أن تتمسك بدينك وتعتز به، وتدرك أن الأيام دُوَل، وأن نصرَ المؤمنين قريبٌ.

وكذا عليك -بُنَي- أن تعامل كل أحد من غير المسلمين منطلقًا من عقيدتك، وما ارتضاه الله سبحانه ورسوله -صلى الله عليه وسلم- لك، وإياك وفتاوى علماء السلطان والفاسدين المتمسحين بالفقهاء والأئمة ومذاهبهم؛ فإنهم على دين ملوكهم، يطوِّعون الدين خدمة لأغراضهم، ويحرفون الكلم عن مواضعه، يشترون بآيات الله ثمنا قليلًا؛ فبئس ما يشترون!

ثم عليك -بُنَي- أن تعلم أن الله سبحانه وضع ضوابط وقواعد تُعامل بها غير المسلمين، ولا تتبدل تلك القواعد

ولا تتغير بدعوى تغير الزمان، والواقع والطباع، وتارة بدعوى السلام العالمي والمحبة والإنسانية؛ فإنه لا يخلو زمان من أمم مهيمنة وأخرى مقهورة، ولا يزال المهيمن وصاحب السيادة يضع تشريعاته ويُلزِمُ بها الجميع، وقد تمالأ أهل الكفر جميعًا على المسلمين، فما عاد يشغلهم إلا تنحية كل اسم وصِفَةٍ لتشريع الله سبحانه للبشر، وما نقموا من المسلمين إلا لأن دينهم كاملٌ أتى بتشريعات لشتى مناحي الحياة، وهو فوق ذلك تنزيل من حكيم حميد، فأنى لهم مثله!

فإياك أن تنخدع بدعاوى الإنسانية والسلام والمحبة والتعايش السلمي؛ فإن إخوانك المسلمين يقتلون في شتى بقاع الأرض، ولا يحرك ذلك ساكنًا لبني ملة الكفر جميعًا!

وتذكر -بُنَي- ما قلته لك سابقًا:

لا يكتمل إيمانك ويتم حتى يكون من يؤذيك في ربك -سبحانه- ورسولِه -صلى الله عليه وسلم- ودينِه أبغضَ إليك ممن يؤذيك في والديك وزوجك وأهلك أجمعين.

لذا، قال سبحانه وهو أصدق القائلين:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

وقال سبحانه:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾

إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة].

فاعلم -بُنَي- أنه لا يجتمع في قلب مؤمن محبة الله -سبحانه- ومحبة كافر به، ولا يكمل إيمان مؤمن حتى

يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وضع -بُنَي- هذه الآية نصب عينيك دائمًا:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾

فإن الله -سبحانه وتعالى- خلق ابن آدم ثم جمع له في نفسه من المتناقضات ما تتحير به عقول الناس!

فعوارض ظاهرة:

كالجوع والشبع، والتعب والصحة، والعطش والري، والشهوة والسكون.

وعوارض باطنة:

كالحب والكره، والرحمة والقسوة، والعفو والانتقام، وغيرها.

وهذه المتناقضات ركبت في أصل نفسية كل إنسان، وتتفاوت بين الناس تفاوتًا لا يحصيه إلا خالقه!

وقد يسأل سائل:

لمَ خلق الله الكره والقسوة والانتقام والجوع والعطش؟

لو خلق الحُبَّ وحده لعاش الناس في سلام وأمان، إلى آخر تلك الشبهات الدالة على نقص فهم صاحبها لحقيقة الدنيا!

إنما الدنيا دار بلاء وامتحان، وإن الآخرة لهي الحيوان ودار الخلود!

وإيمانك باليوم الآخر يلزمك أن تفهم أن الله خلق بني آدم في الدنيا:

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... ﴾ [الملك: ٢]

فأيُّ امتحان بين الناس إن لم يكن كره مع الحب، وجوع مع الشبع، وشهوة مع السكون، وانتقام مع العفو... إلخ.

الله خلق في نفسك كل ذلك ثم كلفك بتكليف:

اجعل حبك فيّ، وبغضك فيّ، واجعل شبعك معينًا لك على طاعتي، وجوعك مذكرًا لك بحقيقة الدنيا، وحافظًا لبدنك وصحتك، ولا تصرف انتقامك إلا فيما أبحته لك، فإن طَغَيْتَ فمُعَاقَبٌ، واجعل عفوك عمَّنْ آذن لك فيه بالعفو، لا ما ترضاه لنفسك!

واجعل مودتك فيّ، وقطيعتك فيّ!

ولا تجعل لنفسك حظًّا ولا نصيبًا!

فإن أبيت إلا أن تفعل وكلتُك إلى نفسك!

أيا مسلمًا مستسلمًا لربك:

لستَ من يحدد من تصرف له المحبة ومن تحجب عنه!

لستَ من يحدد أن الحياة تستقيم بالمحبة والسلام، فالله سبحانه هو الخالق وقد شرع أنها لن تستقيم بذلك؛ لأنه خالق البشر، ويعلم مِنْ خَلْقِه هَلْكَى يسعَوْنَ في أرضه فسادًا ولا يُقابَلون إلا بالقسوة والشدة!

يا مؤمنًا بكتاب ربك، أتؤمن ببعضه وتكفر ببعض؟!

ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير

على الله التكليف، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا الامتثال!

فإن أبيت إلا أن تُنَصِّب نفسك حاكمًا بعقلك في مقابل تشريع ربك، فكُفَّ عن المسلمين غثاءَك!

تعبد -بُنَي- لله بالتسليم والامتثال، فإنما الدنيا دقائق ثم تنقضي، ثم الخلود!

إما في جنة النعيم، وإما في العذاب المقيم!

فاعلم -بُنَي- أن الله -سبحانه- شرع لك كيفية تعاملك مع غير المسلمين فمنهم محارب فليس له إلا الحرب، ومنهم مسالم كفَّ أذاه عن المسلمين، فلَزِمَنا معاملته بالحسنى وكف الأذى عنه، وبره في حدود ما أباحه الله، والعدل معه وعدم الجور عليه، شريطةَ ألا يؤذي المسلمين في دينهم أو أنفسهم أو أموالهم، ولا يظاهر عليهم عَدُوًّا، ولا يعين عليهم أحدًا؛ فإن امتنع عن هذه الأمور فله قدر المعاملة بالحسنى، وليس له منك المحبة ولا المودة ولا الألفة؛ فما كان لك أن تود أو تحب من يسب ربك أو ينسب له الولد أو الزوجة أو النقص بأي وجه من الوجوه، وكذلك من يؤذيك في رسولك -صلى الله عليه وسلم- فيرميه بالكذب أو الجنون أوغير ذلك!

فإن وقع في قلبك محبة من هذا حاله؛ فبئس العبد أنت،

وتوشك أن تُسلب الإيمان رويدًا رويدًا!

ولا يغرنك بعض الجهال الذين هم أجهل الناس بقلوبهم وبمداخل الشيطان وخطواته، مِمَّن يزعم أنه يحب أولـئك ويعايشهم وهو مع ذلك متمسك بدينه محب لله ورسوله، فوالله ما رأينا واحدًا منهم إلا وهو -على التحقيق- مخرومُ الإيمان، مسلوبُ التمييز، مُخْتَلُّ الاعتقاد، لا يرى الحق حقًّا ولا الباطل باطلًا، متبعًا هواه في كل شيء، يرى نفسَه محورَ الكون، ويحدد ما يصح وما لا يصح بناء على ما وافق هوى نفسه، ليس في قلبه تعظيم لأوامر الله وشرعه، ولا لحديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ودينه، قد يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام!

فاحذر هٰؤلاء -بُنَي- واجتنبهم واجتنب صحبتهم وخلطتهم؛ فإن قلوبهم مختلطة وعقولهم فاسدة، ولا يعرفون من دنياهم ودينهم إلا ما وافق أهواءهم!

ولئن حذرتك قبل من صحبة من لا يدلك على الله حاله،

ويعينك على طاعة مولاك؛ فمن كفرَ بالله أولى بالتحذير منه، لا تتخذ منهم صاحبًا ولا خليلًا، وعليك معاملتهم بالحسنى والعدل معهم في كل شؤونك كما أسلفتُ لك!

ثم اعلم -بُنَيَ- أن ما يتحجج به البعض من جواز الزواج بنساء أهل الكتاب، وأنه كيف يستقيم إباحة الزواج منهم مع النهي عن محبتهم، فإن سوء تصور واقع المسلمين يوم أن كان الدين مهيمنًا، وكان للمسلمين عزة ومنعة واستعلاء، هو سبب التخليط!

وقبل أن أبيِّن لك فإني أود أن أنبهك على أمر يعرفه كل رجل وامرأة مستقيمَيِ الفطرة، ألا وهو:

الحب بين الرجل والمرأة شيء قليل وربما نادر، وليست كل البيوت تبنى على الحب كما يظن كثير من الحالمين الواهمين!

الحب شيء أكبر مما يدعيه كثير من الناس، خاصة في حياة مادية جامدة كتلك التي نعيشها في هذا الزمان!

فصار جل أهل هذا الزمان يعدون كل صورة قد تشي

بالحب حبًّا، وهذا من شدة فقرهم إليه وبعده عنهم!

وأكثر ما تبنى عليه العلاقات اليوم اشتهاء وميل وإعجاب، لا يتجاوز ذلك إلا نادرًا.

وأكثر ما تبنى عليه البيوت الألفة والرحمة والمودة وحسن العشرة، وقليل من قليل من يجاوز ذلك إلى حقيقة الحب!

وعليه فينبغي أن تعرف أَنَّ جل هؤلاء الذين يتذرعون بالمحبة في مواضع كتلك، لا يعرفون حقيقة الحب أصلًا، ويتذرعون بما لا يدركون إلا اسمه، فلو عرفوه حق معرفته ما جعلوه شبهة كتلك التي يرمونها، ولاستحيا عاقلهم أن يرمي بتلك الشبهة، والله المستعان.

ثم اعلم -بني- أَنَّ هذا التشريع أتى حفظًا للمسلمين من الزنا، فكان الأمر أولًا على قول الله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ...﴾ [البقرة: ٢٢١].

وتأمل قوله -سبحانه-: ولو أعجبتكم، يتضح لك ما ذكرت أولًا!

وهأنت -بُنَيَ- ترى النهي أولًا عن نكاحهن ولو أعجبتك إحداهن، فإنهنَّ يدعون إلى النار، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه، وقد قال جمع من أهل العلم بحرمة الزواج من غير المسلمات بإطلاق، ولعل من استثنى أهل الكتاب بناءً على آية سورة المائدة، فإنما جَعَل ذلك تخفيفًا على المؤمنين؛ خشية وقوعهم في الزنا، فإن الرجل يشتهي المرأة ولا يلزم من ذلك حبه لها ولا التعلق بها، ويكفيك الغرب مثالًا على ذلك، فإنهم يشتهون بعضهم البعض فيتصاحبون أيامًا أو أشهرًا، ويرتكبون الزنا، ثم يرحل كل منهم إلى حال سبيله، فلا ينكر تلك الشهوة إلا أنصاف الرجال ممن لم يبق لهم من رجولتهم سوى الاسم أو مختلو العقل والمنطق، غير أن الإسلام جاء ليهذب تلك الشهوات فأباح للرجل إن اشتهى امرأة من أهل الكتاب وأبت نفسه إلا الاجتماع بها أن يتزوجها دفعًا للضرر الأكبر وهو الزنا، للأدنى وهو الزواج من امرأة من أهل الكتاب،

كما أن مثل هذا التشريع فتح باب الدعوة يوم أن كان الإسلام مهيمنًا يعلو ولا يعلى عليه؛ فإن المرأة تكون مع زوجها فترى منه خيرًا من قيام بحق أهله مع حسن اعتقاد وتعبد وصلاة وخير فيميل قلبها إلى ما عليه زوجها؛ فإن أبت إلا بقاءها على الكفر ومحادة الله ورسوله، فمن أباح طلاق المسلمة أباح طلاق المشركة من باب أولى!

فإن فهمت ذلك -بُنَي- فاسبقه بفهم أمر هام:

وهو أننا لو لم نفهم ابتداءً الحكمةَ من إباحة زواج نساء أهل الكتاب مع النهي عن محبة المشركين عامة، فعلينا الامتثال كذلك لأمر الله تعالى، دون تكبر ولا إنكار لما لم تبلغه عقولنا القاصرة، خاصة في أزمنة لا يخلص للرجل فكرة بدأها في رأسه وأراد أن يختمها إلا والهوى وأثر الواقع حاضر فيها بالنصيب الأكبر -إلا من رحم ربك-، فالله المستعان!

والله -سبحانه وتعالى- هو الهادي إلى سواء السبيل، الميسر لك سبل مرضاته، المعينك على الامتثال لأمره، المستعان به في كل شؤونك!

وأسأله سبحانه أن يجعل لك من أمرك رشدًا، وأن ينفعك بما خطَّه أبوك لك، ويُجَنِّبَك خطأه وسهوه، ويعصمَك من زَلَلِـه، ويهديك إلى سواء السبيل، اللَّهُمَّ آمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

والحمد لله رب العالمين.



«وصايا جامعة»

۞ قال ربنا -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات].

۞ وقال -تعالى-: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك].

۞ وقال -سبحانه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات].

۞ قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [العنكبوت].

۞ قال ربنا -سبحانه-: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء].

۞ قال -جل وعلا-: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢١﴾ [النور].

قال -سبحانه- وهو أصدق القائلين:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

وقال -سبحانه-:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة].

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لا تطروني كما أُطْرِي ابن مريم، وإنما أنا عبد، فقولوا: عبده ورسوله». رواه أحمد في مسنده (ح ٣٣٧- مسند عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، ١/ ١١٢ - ط. المنهاج) وهو صحيح.

۞ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطِش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله، ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته». رواه البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، كتاب ما جاء في الرقاق وأن لا عيش إلا عيش الآخرة - باب التواضع، ٨/ ١٣١. ط. الشعب.

۞ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «عَجِبتُ للمسلم إذا أصابه خيرٌ حَمِدَ اللهَ وشَكَرَ، وإذا أصابَتْهُ مصيبةٌ احْتَسَبَ وصَبَرَ. المُسلمُ يُؤْجَرُ في كلِّ شَيءٍ، حتَّى اللقمةَ يَرْفَعُها إلى فِيهِ». رواه أحمد بسند حسن، في مسند سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ح ١٥٥٠، ١/ ٣٨٠، ط. المنهاج.

۞ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للأشجِّ أشجِّ عبد القيس: «إن فيك خَصْلَتَيْنِ يحبهما الله ورسوله: الحِلْمُ والأَنَاةُ».

رواه مسلم - كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله، ١/ ٣٦، ط. القاهرة ١٣٨٣هـ عن ط. استانبول.

۞ قال أُبَيُّ بنُ كعب -رضي الله عنه-: «يا رسول الله إني أُكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: ما شئت، قال: قلت: الرُّبُعَ؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: النصف؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قال: قلت: فالثلثين؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: إذن تُكفى همَّكَ، ويُغفرَ لَكَ ذنبُك».

رواه الترمذي في الجامع الكبير وحسنه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ح ٢٦٢٥، ٤/ ٤٤٨، ٤٤٩، ط. الرسالة العالمية.

۞ قال -صلى الله عليه وسلم- لصاحبه معاذ -رضي الله عنه-: «ألا أخبرك بمِلَاك ذلك كله؟

فقلت: بلى يا نبي الله.

فأخذ بلسانه قال: كف عليك هذا.

فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟

فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناسَ في النار

على وجوههم -أو على مناخرهم- إلا حصائدُ ألسنتهم». رواه الترمذي في جامعه وقال حسن صحيح، أبواب الإيمان عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في حرمة الصلاة، ح ٢٨٠٤، ٤/ ٥٦٨، ط. الرسالة العالمية.

۞ قال -صلى الله عليه وسلم-: «إن الله كَرِهَ لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال». رواه البخاري- كتاب وجوب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، ٢/ ١٥٣. ط. الشعب.

۞ وقال -صلى الله عليه وسلم-: «بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ: زَعَمُوا». رواه أبو داوود في سننه وهو صحيح الإسناد، أول كتاب الأدب، باب في قول الرجل: زعموا.

۞ قال -صلى الله عليه وسلم- في حجة الوداع: «ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وكحرمة بلدكم هذا». رواه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث حِذْيَم بن عمرو الساعدي، بسند ضعيف، والحديث صحيح لغيره، ح ١٩٢٦٩، ٨/ ٤٣٤٧، ط. المنهاج.

۞ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «ما مِنْ عبْدٍ مؤمنٍ إلا وله ذنبٌ يعتاده الفَيْنَةَ بعد الفيْنَةِ، أو ذنبٌ هو مُقِيمٌ

عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا، إنَّ المُؤمنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا إذا ذُكِّرَ ذَكَرَ». -رواه الطبراني، وهو صحيح الإسناد-.

۞ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «كان الله ولم يكن شيء غيره». رواه البخاري في الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، وهو جزء من الحديث، ٤/ ١٢٨، ط. الشعب.

۞ قال -صلى الله عليه وسلم-: «لن ينجي أحدًا منكم عملُه.

فقال رجل: ولا أنت يا رسول الله؟

فقال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته، ولكن سددوا». رواه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة -رضي الله عنه-، بسند صحيح، ح ٩٩٦٦، ٤/ ٢٠٥١.

۞ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَاءَ اللهِ بِسَخَطِ الناسِ كَفَاه اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، ومَنِ الْتَمَسَ رِضَاءَ الناسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلى النَّاسِ». رواه الترمذي في جامعه -بسند ضعيف والحديث حسن-، أبواب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب منه، ح ٢٥٧٩، ٤/ ٤١٥، ٤١٦وال. ط. الرسالة العالمية.

۞ قال -صلى الله عليه وسلم-: «يا أيها الناس، عليكم بتقواكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل». رواه أحمد في مسنده، مسند أنس بن مالك -رضي الله عنه- بسند صحيح على شرط مسلم، ح ١٢٧٤٦، ٥/ ٢٦٥٢، ط. المنهاج.

۞ وقال الملك -سبحانه- فيما يرويه عنه نبيُّه -صلى الله عليه وسلم- : «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحدًا منهما قذفته في النار». رواه أحمد في مسنده بسند حسن، مسند أبي هريرة -رضي الله عنه-، ح ٩٤٨٣، ٤/ ١٩٦٠، ط. المنهاج.

۞ قال -صلى الله عليه وسلم-: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم». رواه الطبراني بإسناد حسن.

۞ قال -صلى الله عليه وسلم-: «لا تصاحب إلا مؤمِنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ». رواه الترمذي في جامعه بسند حسن، أبواب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في صحبة المؤمن، ح ٢٥٥٧، ٤/ ٤٠٤، ط. الرسالة العالمية.

۞ وقال -صلى الله عليه وسلم-: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل». رواه الترمذي في جامعه بسند حسن، أبواب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب، ح ٢٥٣٥، ٤/ ٣٩٠، ط. الرسالة العالمية.

۞ قال -صلى الله عليه وسلم-:

«من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق». رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب: ذم من مات ولم يغز، ٦/ ٤٩، ط. القاهرة ١٣٨٣هـ.

۞ وقال -صلى الله عليه وسلم-:

«إذا تبايعتم بالعِينَة، وأخدتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد: سلَّط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم». رواه أبو داود في سننه، كتاب الإجارة، باب: في النهي عن العينة.

۞ قال كعب الأحبار -رضي الله عنه-: «من أحب في الله ، وأبغض في الله ، وأعطى في الله ، ومنع في الله ، فقد استكمل الإيمان». -رواه عنه أبو بكر الخلال في «السنة» وغيره، وروي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بلفظ: «إن من أوثق عرى الإيمان

الحب في الله والبغض في الله»، ولا أعلمه يصح مرفوعًا من طريق.

۞ قال سيدنا جُنْدُبُ بْنُ عبدِ الله -رضي الله عنه-: «كُنَّا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ونحن فتيان حَزَاوِرَةٌ -أي: قاربوا البلوغ-، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانا». -رواه ابن ماجه عنه بإسناد صحيح في مقدمة «السنن»، ح ٦١، ١/ ٤٢، ط. الرسالة العالمية.

۞ قال أبو عبد الرحمن السلمي -رحمه الله-: حدثنا من كان يُقْرِئُنا من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم كانوا يَقْترِئُون من رسول الله عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل. -رواه أحمد في مسنده عنه بسند حسن، مسند الأنصار- حديث رجل من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، ح ٢٣٩٦٥، ١٠/ ٥٥٨٣، ط. المنهاج-.

۞ قال سيدنا عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: «إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فأَرْعِهَا سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه». رواه ابن المبارك في الزهد، وكذا أحمد.

۞ وقال المروذي: قال لي أحمد: ما كتبت حديثًا إلا وقد عملت به، حتى مر بي أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت. -أخرجه الخطيب في كتاب الجامع في أخلاق الراوي وآداب السامع-.

۞ قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: العبادة اسمٌ جامعٌ لكل ما يُحِبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الظاهرة والباطنة. كتاب العبودية.

۞ قال الإمام ابن عطاء الله السكندري -رحمه الله ورضي عنه-: اعلم أن الله كان لك قبل أن تكون لنفسك، فكما كان مدبرًا قبل أن تكون ولا شيء من تدبيرك معه، كذلك هو -سبحانه وتعالى- مدبر لك بعد وجودك، فكن له كما كنت له، يكن لك كما كان لك. -التنوير في إسقاط التدبير صـ١٥، ط. مصطفى الحلبي ١٩٤٨م-.

۞ أي بني: باب ربك -جل وعلا- مفتوح لعباده لا يغلقه دونهم، ولا يحول بينك وبينه إلا أن تغلقه بيدك أو تُولِيه ظهرك؛ فإياك أن تفعل ففيه هلكتك!

۞ أي بني: لا تأس على ما فاتك من الدنيا، ولا تفرح بما أوتيته منها؛ فإن العاقل لا يغره الزائل فينسى به الباقي.

۞ أي بني: كل خلق لم يتخلق به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو كان خلقه بخلافه فلا تقبله من أحد كائنًا من كان، ولا تغتر بخلق عالم أو إمام من حدة طبع أو شدة أو لين مع ضعفٍ ووَهَنٍ أو غفلة أو غيرها؛ فإنك محاسب على اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- لا غيره، وهو -صلى الله عليه وسلم- الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق.

۞ أي بني: أنبأنا عمك خالد سلام قائلًا:

أكبر معركة تخوضها ليست في الشوارع ولا في ساحات الوغى!

أكبر معركة تخوضها: ميدانها ضَيِّقٌ ضِيقَ حيِّزِك المادي، وواسعٌ وُسع المدى!

معركتك الكبرى هي أنت! نعم أنت!

معركتك الكبرى هي أن يطابق مخبرك مظهرك. أن

تنعكس صفحة نفسك على مُحَيَّاك فتبدو كما هي بلا رتوش؛ كأنك تنظر لصورتك في المرآة.

أن تستقيم حقًّا! أن تفعل ما تؤمن به فِعلًا!

أن تكف عن الادعاء! أن تتوقف عن التَّصَنُّعِ!

أن تكون كما تزعم وتُرَوِّج! أن تكون أنت الحقيقي!

ويا لها من معركة قَلَّ من ينتصرون فيها، فَهَلَّا حاولت أن تمتشق حسام عزمك وتخوضها؟!

اللَّهُمَّ أصلح فساد قلوبنا.

۞ أي بني، اطلب الدنيا كما تطلب الآخرة، ولكن اجعلها في يدك لتعز بين الخلق، ولا تجعلها في قلبك فتهلك بين يدي الخالق.

واجعل بذل الدنيا سبيلًا لنجاتك في الآخرة، فإنك -وإن طال بك العمر- تاركها وراحل!

۞ أي بني، إياك وصحبة ذوي المال والجاه والسلطان، فإنه يورثك تجبُّرًا وبَطَرًا وينسيك حقيقة نفسك، وكن كسيدك

-صلى الله عليه وسلم- حين سأل ربه أن يعيش مسكينًا ويموت مسكينًا ويحشر في زمرة المساكين!

فإن المسكين لا هو بالمعدم فينكسر لذوي المال، ولا هو بالغني فينسى إخوانه الفقراء وينسى حقيقة نفسه بين يدي الخالق.

۞ أي بني: أنشدني عمُّك علي فريد الحُسَيْنِيِّ لنفسه قائلًا:

شعري بكاءُ الملايين التي شَقِيَتْ
مِنْ أولِ الصُبحِ حتى آخرِ الغَسَقِ

خُذهُ عناءً فما أنهيتُ قافيةً
إلا وَجَفَّفتُ في آثارها عَرَقِي

والسَّاجدون على الأعتابِ أَحنَقَهُمْ
أني أُحَقِّرُ فيهم كُلَّ مُرتَزِقِ

كَرِهتُهم إذ يزيدون الحياة أسًى
وإذ يساوون خَنّاقًا بمختنِقِ

وإذ يُبيحونَ آمالَ الشعوبِ لِمَنْ
باع الشعوب وإذ يَحْيَونَ بالمَلَقِ

ما ضَرَّنِي وحريرُ الذُلِّ مَلْبَسُهم
أنِّي أُرَقِّعُ من حُرِّيَتي خِرَقِي
وأنني رغمَ إِقْلَالي ومَسْغَبَتِي
لا الزَّيْفُ دِينِي ولا التَّطْبيلُ من خُلُقِي

۞ أي بني: اطلب حاجتك بعزة نفس؛ فإن الأمور تجري بمقادير!

۞ أي بني: إياك والمداهنة! إياك والتنازل عن ثوابت دينك وأخلاقك لأي أحد كائنًا من كان، فإنك تتنازل اليوم عن مختلف فيه بدعوى المرونة، ثم تتنازل عن متفق عليه؛ لأن نفسك اعتادت التنازل!

۞ أي بني: أمسك عليك لسانك، ولا تغتب أحدًا، ولا تقبل الغيبة في مجلسك؛ فإن القلب إذا ألف الغيبة تَخَنَّث وانشغل بالسفاسف ولم يعد يأنس من الحديث إلا: قيل وقال!

۞ أي بني: لا أعلم مرشدًا أمينًا ولا صاحبا حسن الصحبة ولا معلما جمع الخير كله كالقرآن الكريم! فاجتهد في جمعه في صدرك، والعمل بما فيه آية آية، واجعله

صاحبك ومؤنسك وشيخك وأستاذك ومربيك، تر الخير كله بإذن الله!

۞ أي بني: كنت أؤمل أن تطول صحبتي لجدك، وأتخيلني معه في بحبوحة من العيش وحوله أولاده وأحفاده، فقطع اليقين (الموت) حبل الخيال! وقال لي: أفق! الذي تؤمله ليس إلا في الجنة؛ فأعدّ لها!

۞ أي بني: إذا اشتد عليك أمر من أمور الدنيا فأبشر واصبر، وقل لنفسك: هانت!

فما الدنيا إلا ساعة وتنقضي!

۞ أي بني: إياك وكثرة الحلف بالله -وإن كنت صادقًا-، فلا يُبتذل مقام الله في قلبك بكثرته! وإياك والحلف بغير الله في أي شيء، ولا تشغل بالك بمناكفات صبية زماننا ممن يلعبون بدينهم ودين الناس فيحلفون بكل ما فيه خلاف في جواز الحلف به؛ مناكفة لمخالفيهم، واحتط لدينك؛ تنج بإذن ربك!

۞ أي بني: كان جدك -رحمه الله ورضي عنه- يقول كثيرا: مفتاح الأمر كله في قيام الليل وكثرة الصلاة والسلام على النبي

-صلى الله عليه وسلم-! فاعمل بنصيحة جدك ففيها خير كثير.

۞ أي بني: أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك، فالله يعلم أن ساعة واحدة مما كانت تقوم فيها على شؤوونك لا يستطيع أن يقوم بها أبوك إلا بشق الأنفس، وهي تقوم بها راضية ضاحكة مستبشرة على ما بها من تعب وجهد، فاشكر لها ببرها، فوالله ما تستطيع أن توفيها شيئا من حقها، فاتق الله فيها!

۞ أي بني: إخوتك لحمك ودمك، فلا تخن الله فيهم، واجعلهم منك بالقرب دائمًا، وكن لهم خير عون وسند.

۞ أي بني: إذا أنا لقيت ربًّا كريمًا رؤوفًا رحيمًا فاصبر واحتسب، وادع الله لي بالرحمة والمغفرة: وقل رب اغفر لأبي؛ فإنه كان يحبك ويحب نبيك -صلى الله عليه وسلم-!

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.



«مناجاة»

۞ باسمك اللَّهُمَّ ربي، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر والباطن، وأنت على كل شيء قدير، فلك الحمد ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك العبد، اللَّهُمَّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، فأَجْرِ اللَّهُمَّ على لساني ما تحب أن يسمعه عبادك عنك، وعلى يدي ما تحب أن يقرأه عبادك عنك، ثم تقبله مني وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم.

۞ اللَّهُمَّ عُبَيْدُك مُسَيْكِينك أتاك يشهد أن لا إلٰه إلا أنت، وأن محمدًا عبدك ورسولك، لا يملك وسيلة إلا هي، ولا يرى له عملًا ينجيه، غير أنه يحبك ويحب نبيك -صلى الله عليه وسلم-، فبحبه اللَّهُمَّ لك، اغفر له وتب عليه إنك أنت التواب الرحيم.

۞ اللَّهُمَّ ما بي من نعمة أصبحت بها أو أمسيت، فمنك

وحدك لا شريك لك، أنت وهبتنيها ورزقتنيها بغير حول مني ولا قوة، ولا تزال تعطي وتمنح، ولا أزال أغفل وأخطئ، فبِغِنَاك اللَّهُمَّ عني، وبفقري إليك إلا غفرت لي وتبت علي إنك أنت التواب الرحيم.

۞ اللَّهُمَّ ربي، كنت ولم يكن شيء غيرك، وأنت سبحانك الرب وحدك لا شريك لك، وصرت أنا ولم أك شيئًا، خلقتني من عدم، وأوجدتني بغير نَصَبٍ، وتكفلت بي وكنتُ عاجزًا، ودبرت لي أمري نطفة فعلقة فمضغة فعظاما، ثم كسوتني لحمًا، ونفخت فيّ الروح، ورعيتني في بطن أمي ولم يكن لي سواك، فلما آنست من نفسي رشدًا، نسيت فضلك عليّ، وتدبيرك لي، وغفلت عن جميل صنعك وعظيم قدرك، فعصيت ولا زلت تسترني، وتشتَّتُّ ولا زلت تجمعني، فاللَّهُمَّ إني ما عصيتك تجرأً على مخالفتك، ولا زهدًا في جنتك، ولا استهانة بعذابك، ولكني عبدك الفقير الذي لا يعجزك، ضعُفَ فأذنب، ونسي فأخطأ، وعلم أنه لا يغفر الذنوب إلا أنت سبحانك، فبرحمتك التي وسعت كل شيء، اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم.

۞ اللَّهُمَّ اجمع قلبي علي، واجعله على مرادك، فلا يحب إلا فيك، ولا يبغض إلا فيك، ولا يوالي إلا فيك، ولا يعادي إلا فيك، ولا يرضى ولا يغضب ولا يسخط ولا يفرح إلا فيك وبك.

۞ اللَّهُمَّ اجعل حياة قلبي في ذكرك وكتابك، وأعني على العمل به وبسنة نبيك -صلى الله عليه وسلم-.

۞ اللَّهُمَّ إني أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن محمدًا عبدك ونبيك ورسولك.

۞ اللَّهُمَّ إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء همي، وذهاب غمي، اللَّهُمَّ علمني منه ما جهلت، وذكرني منه ما نُسِّيت، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عني.

۞ اللَّهُمَّ إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدوٍّ ملَّكْتَه أمري؟

إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي!

ولكن عافيتك أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

۞ اللَّهُمَّ اغفر لأبي وأمي وارحمهما كما ربياني صغيرًا.

۞ ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا.

۞ ربنا اغفر لي ولوالدي ولإخوتي وزوجي وأولادي وللمؤمنين والمؤمنات يوم يقوم الحساب.

۞ ربنا اكتب لنا مقامًا في مدينة نبيك -صلى الله عليه وسلم-، وارزقنا جواره، وشهادة بها في سبيلك، ودفنًا بالبقيع،

اللَّهُمَّ آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وارض اللَّهُمَّ عنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين، آمين.



كان الفراغ من كتابته على يد العبد الفقير لكرم ربه الغني: أبي أُبَيّ عُمَرَ بنِ عليّ

عصر يوم الأربعاء، سادس جمادى الأولى لعام واحد وأربعين وأربعمائة وألف من هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وكان بدؤه: بالمسجد الحرام -زاده الله تشريفًا وتعظيمًا ومهابةً وأَمْنًا- بأم القرى مكة المكرمة، وبعضه بمسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالمدينة المنورة -زادها الله تشريفًا وتعظيمًا ونورًا وسكينةً-، حيث بدأت رسالة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- ودعوته منهما.

وختامه: بالمسجد العتيق مسجد سيدنا عمرو بن العاص -رضي الله عنه- صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حيث بدأت الدعوة في مصر منه، وهو من باب الفأل الحسن، وكان يحب الفأل الحسنَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-

والحمد لله رب العالمين.



فهرس


الحمد لله رب العالمين